فكتور سَحَاب

مَن يَحمِي المسَيحيِّين العَرَب؟

دار الوحدة

الطبعة الاولى

١٩٨١



دار الوحدة
للطباعة والنشر
شارع ليون ــ الحمراء ــ بناية مبشر
ص.ب ١١٣/٦٣٨٤ ، هاتف ٣٥٣٨٨٥
برقيا د الوحدة ، بيروت ـ لبنان

الإهداء:

إلى إدمون ربّاط

الفصل الأول

بلى... اضطهد المسيحيون ثلاثاً؟(*)

(*) نشر في «نهار الأحد»، ١٩ نيسان ١٩٨١.

من يقول ان المسيحيين العرب لم يعانوا الاضطهاد في تاريخهم الطويل، يناقض الحقائق التاريخية التي لا يختلف فيها اثنان.

بلى! المسيحيون العرب اضطهدوا اشد الاضطهاد، ثلاث مرات في العموم. هذه المرات الثلاث هي المحطات الكبرى التي واجه فيها المسيحيون العرب، بصفتهم هذه، اوقاتاً عصيبة، لانتمائهم الديني، لم يكونوا ليواجهوها لو كان انتماؤهم الديني مختلفاً.

يقول احد المؤرخين السوريين، ان التاريخ للشعوب كالذاكرة للطفل. فالطفل حين يشعل عود ثقاب، فيحرقه العود، انما يسجل في ذاكرته ان عود الثقاب محرق، ويتعلم كيف يتدارك الامر كلما امسك عود ثقاب، حتى لا يتكرر الاحتراق. هكذا التاريخ يحفظ في ذاكرته تجارب الشعوب،

فتتعلم ان هذا المسلك قد يهلكها او يعرضها للخطر، وفق ما حدث في تلك الواقعة التاريخية. وان هذا الحل يفضي الى بر آمن، لأن التجربة* التاريخية، ادت بالأسباب المماثلة الى نتائج مرغوب فيها.

ويقول جيمس جورج فريزر، في كتابه «الغصن الذهبي»، ان الحياة السياسية لدى شعب احدى الجزر في المحيط الهادىء، لا وجود لها بالمعنى المتطور، لأن هذا الشعب يؤمن بأن ذكر الموتى يستدعي ارواحهم، التي تعود لتأخذ معها بعض الاحياء. ولأنهم يحظرون ذكر الموتى، فانهم يحظرون بالطبع تسجيل تاريخ ملوكهم الذين ماتوا، والحوادث التي سبقت. اذن فلا تاريخ عندهم، ولا قدرة على الاستفادة من التجارب السالفة.

ولا يعني هذا ان تسجيل التاريخ يحل كل المشكلات. فمن لا يقرأ تاريخه كمن لا يسجله. ومن لا يتعلم من قراءة التاريخ كمن لا يقرؤه.

نحن المسيحيون العرب، اذا وضعنا نصب اعيننا تحقيق مصالحنا ومصالح أبنائنا وحدها، دون سائر العرب المسلمين، واذا سعينا الى ان نستخلص من تاريخنا الدروس لحماية مستقبلنا ومستقبل ابنائنا في هذه الرقعة من العالم، فما الذي يقوله لنا التاريخ؟

الاضطهاد البيزنطي

* في الحقبة الاولى حين اضطهد المسيحيون العرب (والآراميون والأقباط)، وهي حقبة سبقت ظهور الإسلام، وامتدت قرنين من الزمان على الأقل، كانت الدولة البيزنطية تبنت المسيحية ديناً رسمياً، وأخذت تسعى إلى محاربة جميع الأديان الأخرى (منذ أواخر القرن الرابع، أيام الامبراطور تيودوسيوس)، بعدما ورثت تاريخاً طويلاً من الاضطهاد الروماني للمسيحيين المشارقة والمغاربة. وكان تبني الدولة البيزنطية الدين المسيحي بعد قرون من الصراع، اشاع اعتقاداً ان هذا التبني سينهي عصور الاضطهاد. وسرعان ما تبين ان انضمام الدولة الى الدين الجديد، انما كانت دوافعه السياسية غالبة على الدوافع الأخرى. فأخذت بيزنطية تشكل لنفسها «طبعة» خاصة بها عن هذا الدين، واخذت تفرض النظرية الرسمية على شعوبها، سعياً الى تجانس سياسي كانت في حاجة اليه. ولم يكن ليشفع للمسيحيين العرب (والآراميين والأقباط) انهم من اتباع الدين المسيحي. بل كانت بيزنطية ترغب في اختفاء كل المذاهب المسيحية التي تخالف المذهب الرسمي. كان الامبراطور هو الرأس الديني والدنيوي. وكان الخروج على الوحدة الدينية للامبراطورية خروجاً، في نظره على وحدتها السياسية، وفقاً لما وصفه الدكتور ادمون رباط بعمق وتوسع

في كتابه الممتاز «المشرق المسيحي قبل الإسلام»[1].

ولم يكن الخلاف لاهوتياً في حقيقته، او فلنقل انه لم يكن لاهوتياً في جميع وجوهه على الأقل. بل كان، اذا شئنا اجتناب التخصيص الجازم، لاهوتياً وسياسياً، واصطداماً بين بيئتين متنافرتين. حتى ان الامبراطور كان يرغب في جعل الكنيسة على صورة الامبراطورية ومثالها. ففي كل مقاطعة حاكم، وقائد عسكري . . . ومطران. اما المسيحيون العرب فكانوا بطبيعة الحال يسعون الى ان تكون كنيستهم تعبيراً عن بيئتهم هم. فكانوا يعينون لكل قبيلة مطراناً، مثلما كان لكل قبيلة شيخها. وذلك مثال مبسط وبليغ الدلالة على مصدر الخلافات ومنبعها. كانت الخلافات عقائدية في ظاهرها، لكنها كانت تستنبط من البيئة كل عوامل التناقض التي كانت قائمة بين عالم عربي - ارامي - قبطي يتفاعل بحيوية للتعبير عن ذاته، وبين امبراطورية هرمة تبحث عن شتى الوسائل لمنع تفتت اشلائها، تحت ضغط نوازع التحرر لدى الشعوب التي تشكلها.

بين هاتين الرغبتين: رغبة رفض المذهب الرسمي تعبيراً عن رفض سلطان الدولة البيزنطية، ورغبة هذه في فرض

---

(١) أصدرته بالفرنسية «منشورات الجامعة اللبنانية» في بيروت، سنة ١٩٨٠.

مـذهبها لفـرض سلطانها، ظهـرت طـائفـة من المسيحيـين السوريين ارتـأت ان توالي الـدولة البيـزنطيـة في مذهبهـا، فانضمت الى مؤيدي مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م. (ومنهم ظهرت الطائفة المارونية بعد الإسلام، اواخر القرن السابع). اما الكثرة الغالبة من العرب والآراميين والقبط، فانضموا الى ما يسمى بالمذهب اليعقوبي (السريان الأرثوذكس، في التسمية المعروفة اليوم)، نسبة الى يعقوب البرادعي مؤسس اكليروس اليعاقبة، وصديق الملك الغساني اليعقوبي الحارث بن جبلة. وللتدليل على نسبة تـوزيع القـوى قال احـد مؤرخي ذلك العصر (راجع كتاب د. رباط الآنف ذكـره) ان المسيحيين اليعاقبة في مصر كان عددهم ستة ملايين نسمة، فيما كان تعداد الخلقيدونيين مائتي الف، معظمهم من الروم والأغريق في مدينة الاسكندرية ومن حولها. ويورد الفرد بتلر، المؤلف البريطاني[٢] معلومات مماثلة دون ان يتطرق الى ارقام صريحة.

اما النسـبة في سوريا الطبيعيـة، فكانت اكـثر ميلاً الى اليعاقبة حتى.

وكم تحوي مصادر التاريخ الكنسي وغير الكنسي، وقائع واحداثاً تشير الى هذه العلاقة الجدلية المعقـدة بين الـدولة ومحكوميها. وكم نقرأ عن تردد بيزنطية بين سياسة المـلاينة

---

(٢) في كتابه «فتح العرب لمصر».

وسياسة القمع، للوصول إلى غرض واحد، هو انهاء وجود العقائد المسيحية المغايرة للعقيدة الرسمية، مرة بالمجامع التي كان يحرص الامبراطور على قول كلمته صريحة فيها، في شكل او آخر، ومرة بالتصفية الجسدية وملاحقة الرهبان حتى تخوم الصحارى السورية والمصرية. وفي مجزرة بيـزنطيـة واحدة، قتلت الدولة في مصر مائتي الف قبطي من انصار الطبيعة الواحدة (اليعاقبة). وعندما فتح العرب مصر كان الأكليروس القبطي مختبئاً برمته في الصحارى هرباً من التصفية.

في هذا الاطار الدامي، حاولت الدولة البيزنطية ان تتكيء على قواها الذاتية بالطبع، لكنها سعت ايضاً الى انشاء متكآت محلية لها. وجعلت تزين للسـريان الخلقيدونيـين ان عليهم خدمة اغراضها وانها كفيلة بحمـايتهم. ونشبت في الواقـع مذابح ترويها التواريخ الكنسية، ومنها مذبحة «رهبـان دير مارون» في أفاميا (جوار مدينة حماة السوريـة)، التي ذهب ضحيتهـا مئات من الـرهبان الخلقيـدونيين (انصـار المذهب الرسمي) على ما ترويه مصادرهم. وفي هذا الشأن ثمة رسالة تاريخية وجههـا «رهبان ديـر مارون» وغيـرهم من الرهبـان الخلقيدونيين في سوريا الى البابا هرمزدا، يرتجعون فيها اليه الأمر ويناشدونه الحماية والرعاية[٣]. ولا شك في ان البابا

---

(٣) راجع هذه الوقائع في «تاريخ سورية الدنيـوي والديني» للمـطران =

يومئذ، لم يكن يملك من وسائل الاستجابة لهذا النداء سوى الصلاة وبعض الإجراءات الدينية العقائدية. أما الدولة البيزنطية، فإنها أمام تصاعد الصراع، وتحرك النوازع المعادية لها بين المسيحيين العرب والآراميين والأقباط، كانت في حاجة إلى حماية نفسها، أكثر مما كانت قادرة على حماية أحد. والواقع أن «رهبان دير مارون» وغيرهم إنما كانوا ضحية اضطهاد بيزنطية للمسيحيين السوريين والمصريين، وضحية محاولتها استغلال أنصار المذهب الرسمي لمصلحتها السياسية. ولم يتوقف اضطهاد المسيحيين العرب (اضطهاد بيزنطية لليعاقبة واضطهاد اليعاقبة في المقابل للخلقيدونيين) إلا عند ظهور الإسلام على البلاد، وقيام معاوية على الحكم في ولاية الشام، قبيل إنشاء الخلافة الأموية.

وتروي التواريخ الكنسية والإسلامية العربية[٤] ان معاوية

= يوسف الدبس، وفي «تاريخ الموارنة»، للأب بطرس ضو (دار «النهار»، بيروت ١٩٧٧).

(٤) لا تكاد تحصى على كثرتها. ويمكن مراجعة تواريخ مثل تاريخ ميخائيل السرياني، او ابن العبري، او يوحنا اسقف آسيا، او تواريخ الفتح العربي كالبلاذري، وابن الاثير، والطبري، والمسعودي، وكتاب الواقدي المنحول «فتوح الشام»، الذي جرى انتحاله، ولكن ارتكازاً على روايات أخذت عن الواقدي، وتاريخ ابن عبد الحكم «فتوح مصر»، للعثور على مقدار كبير من أحداث مفيدة على هذا الصعيد.

استقبل وفوداً من الرهبان الخلقيدونيين، جاءوا ليرتجعوا اليه امر اديارهم وبيعهم التي كان اليعاقبة يستولون عليها. وان الوالي العربي امر باحصاء ممتلكات كل طائفة، ومنع استيلاء اي طائفة على ممتلكات الاخرى، حتى ساد السلام بينها.

الدولة الصليبية

* كذلك واجه المسيحيون العرب أوقاتاً عصيبة في حقبة ثانية هي الحقبة الصليبية. ويقول المطران جورج خضر، الاسقف الارثوذكسي العلامة (٥) ان الكثرة الغالبة من سكان سورية الطبيعية (سورية ولبنان والاردن وفلسطين، وفقاً للتقسيم الحديث) ظلت تنتمي الى الدين المسيحي طوال خمسة قرون من حكم الدولة العربية الاسلامية، وان المسلمين اصبحوا هم الكثرة الغالبة بعد الحروب الصليبية. ويشهد على ذلك تاريخ ابن عساكر. ولست أذكر هل كان المطران خضر

---

(٥) في تعقيبه على احدى المحاضرات التي نظمتها «دار الفن والادب» في قاعة مونتان، ثم في النادي الثقافي العربي، من ٤ آذار الى ٨ نيسان ١٩٨١، حول المسيحيين العرب وقد صدرت المحاضرات في كتاب، عنوانه «المسيحيون العرب»، عن مؤسسة الأبحاث العربية، في بيروت. وتعاقب على القاء المحاضرات في هذه السلسة كل من: الدكتور ادمون رباط والدكتور رضوان السيد والدكتور وجيه كوثراني والمطران جورج خضر والدكتور. قسطنطين زريق والدكتور طريف الخالدي. والتعقيب المشار اليه جاء بعد محاضرة الدكتور رباط.

ذكر في هذا التعقيب، أن المسيحيين شكلوا ثمانين في المائة من سكان سورية قبل الحروب الصليبية، أو انه ذكر هذا الرقم في موقع آخر. على ان المهم في هذا الشأن (والمؤرخون للفترة الصليبية والمملوكية يعرفون ذلك أفضل مما يعرفه غيرهم من المؤرخين بالطبع) ان الغزو المسيحي الاوروبي، أوقع المسيحيين العرب في حرج شديد، الطف ما يقال فيه انه خيرهم بين الوقوف مع بني دينهم والوقوف مع بني قومهم. ويبدو أن المسيحيين العرب في معظمهم اختاروا الحل الثاني، فكان المسعى الصليبي وبالا على المسيحية العربية، من حيث ظن أو صوّر انه دفاع عنهم.

واستطاع القلة ان يحتفظوا بدينهم دون ان يقفوا مع دولة الصليبيين، وعلى ذلك شواهد لا بد من ان يحصيها علماء التاريخ في غير مرجع عربي وغير عربي. لكن الدولة الصليبية استطاعت مع ذلك، ان تزين (مرة أخرى) لقلة من المسيحيين ان ينحازوا الى صفها ويقاتلوا معها. ويروي بعض المؤرخين ان الجالية المارونية في قبرص انما تنحدر من سلالة عدد من المقاتلين الذين انسحبوا من الساحل السوري بعد انهزام الدولة الصليبية، فأقامهم الصليبيون هناك على حصون، ليشكلوا الخط الامامي لحماية الخطوط الاوروبية الخلفية المتراجعة أمام هجمات الدولة الايوبية ثم دولة المماليك.

ولا يعني هـذا ان اعوان الصليبيـين في سوريـة كـانـوا مسيحيين فقط. بل كان منهم مسلمون أيضا. لكن الوبال كان على المسيحية العربية وحدها. فـفـيـما ازداد تعداد المسلمين بعـد الحروب الصليبيـة تقلص عدد المسيحيـين في سوريـة ليصبحوا قلة ضئيلة وكانوا الكثرة.

عصر السيطرة الاوروبية

* وها نحن اليوم في وسط الحقبة الثالثة، حقبة الحضارة الغربية الحديثة التي تناوبت اوروبا ثم اميركا على زعامتها، وعلى تسنّم مكان الصدارة والسيطرة فيها. وهي حقبة بدأت على نحو عملي مع بداية تفجر الثورة الصناعية في أوروبا، وتصارع فرنسا نابوليون، وبريطانيا على مصر وبقية المشرق العربي.

وقد لا يعرف الكثيرون أن اسرائيل التي يعتدها المؤرخون تجسيداً لامتداد السيطرة الغربية الى المشرق العربي، كانت في البدء اقتراحاً من نابوليون بونابرت[٦]. والفائدة في ذكر هذا

---

(٦) حـول هذا الامـر تمكن العودة الى دراسـات لعـدد من البـاحثـين المؤرخين، منهم الدكتور حسن صبري الخولي، والدكتور عبد الوهاب الكيالي والدكتورة خيرية قاسمية.

الامر، هي ان المسألة مع بونابرت تظل واضحة أكثر مما هي مع غيره. فنابوليون لا يمكن اتهامه بأنه قد يقترح انشاء دولة لاسباب دينية. ولعل الحاق اقتراحه انشاء دولة اليهود في فلسطين، بجملة مساعيه الاستراتيجية للسيطرة على المشرق العربي قبل بريطانيا، أكثر اقناعاً من محاولة الحاقه بالدوافع الدينية.

واذا حاولنا أن نرتب تسلسل الامور زمنياً فأننا نلحظ ان التقاتل الغربي للسيطرة على المشرق العربي جاء قبل بداية المذابح الطائفية في جبل لبنان بأكثر من نصف قرن. وإذن فلا يمكن أن ننسب الى الوجود الغربي (الفرنسي والبريطاني والايطالي والالماني والنمسوي والروسي) انه جاء لحماية المسيحيين العرب من الاضطهاد. بل لعل الوجود الغربي ودواعي ترسيخه في المنطقة وتمكينه منها اقتضى اشعال فتيل التقاتل الطائفي الذي ارتبطت احداثه في الامتيازات الاوروبية، حتى امكن لاوروبا ان تدق في جدار هذا البيت العربي مسمار جحا[٧]، حين أوحت انها انما جاءت الى

(٧) باع جحا بيته، لكنه رفض ان يبيع مسماراً مدقوقاً في جدار الدار. وطلب من المالك الجديدة تعهداً ان يسمح له بزيارة مسماره كلما أراد، فسمح له المالك الجديد بذلك مستخفاً. لكن زيارات جحا أصبحت يومية، حتى ندم صاحب البيت على ما أذن به.

المنطقة، وفككت السلطنة العثمانية، وجزأت المنطقة الموروثة، كل ذلك من أجل حماية المسيحيين العرب.

وفي الواقع: من يحمي من؟

ومن يدفع الثمن، ومن يقطف الثمار: المسيحيون العرب أم ساسة الغرب؟

الفصل الثاني

من يحمي من... المسيحيون العرب أم الغرب؟(*)

(*) نشر في «نهار الأحد»، ٢٦ نيسان ١٩٨١.

اذن فمن يحمي الآخر، أهم ساسة الغرب يجهدون في حماية المسيحيين العرب، أم ان المسيحيين العرب يراد بهم أن يحموا الغرب في منطقتنا ويدفعوا ثمن حمايته؟.

يروي المطران يوسف الدبس، مطران بيروت الماروني أواخر القرن الماضي، أوائل القرن الحالي، في كتابه الكبير «من تاريخ سورية الدنيوي والديني»[1] احداثا جرت بين الدولة الاموية والدولة البيزنطية، قبضت فيها بيزنطية ثمناً من الامويين، مقابل ان تتخلى بيزنطية عن إحداث شغب للأمويين في السواحل الشامية، وعند الثغور الشمالية. ويقول المطران الدبس (وهو كتب تاريخه في تسعة مجلدات كبيرة في الحقبة الممتدة بين ١٨٩٣ و١٩٠٥، أي في حقبة كان فيها

(١) المجلد الخامس، في الجزء المخصص بتاريخ المردة، ص ١٠٤ و ١٠٥.

الضغط الاوروبي على السلطنة العثمانية مشتداً)، في بداية عرضه للأحداث:

«وذلك درس نلقيه إلى أبناء ملتنا [الموارنة] وجميع مواطنينا، نحذرهم به من التهور في مهواة المناواة للسلطة السائدة فيهم، بوسوسة أصحاب الاغراض البعيدين عنهم. فمن المعلوم ان الخلفاء الراشدين صرفوا اهتمامهم عند أخذهم سورية وطردهم ملوك الروم منها، الى فتح مدنها. ولم يكترثوا لسكان جبالها لقلة اهميتها وعدم المنفعة ولتعسر مسالكها، وان ملوك الروم ما انقطعت مطامعهم في استردادها. وظلوا يوسوسون لسكانها ليلبكوا أمرها ولا تستقيم حالها ليتيسر لهم العود اليها كما حاولوا مرات فلم يظفروا. فمن ذلك انهم وسوسوا للموارنة، وكانت مساكنهم حينئذٍ في الجبال، من جبال الجليل، الى جبال انطاكية، فلبكوا حكوماتهم وتوافرت غزواتهم في السهول حتى اضطروا بعض الخلفاء ان يعقد صلحا مع ملوك الروم... وكانت النتيجة ان هؤلاء الملوك البيزنطيين انفسهم الذين وسوسوا للموارنة وهيجوهم على مخالفة رضى حكومتهم انقلبوا على المردة وأذاقوهم الأمرّين ومكروا بهم وسبوا اثني عشر ألفاً من نخبة شبانهم وأبعدوهم عن أوطانهم، وجيشوا عليهم وأخربوا أكثر بلادهم وحرقوا أديارهم وعمدوا الى القبض على بطريركهم... فهذه هي الأمثولة التي نريد ان يتمثل بها أبناء ملتنا ومواطنونا».

وفي الصفحة التالية، أورد المطران الماروني الثمن الذي تقاضته الدولة البيزنطية «لتمكر» بالمردة والموارنة، على قوله. فاذا عدنا الى التاريخ، وانه للشعوب كالذاكرة للطفل[٢] ما كان في استطاعتنا ان نستخلص من هذه الواقعة، غير عبرة واحدة تطغى على كل ما عداها، ان الدين للدول، ان هو أحيانا الا وسيلة يتوسل بها الساسة لتحقيق مصالح معينة. والدولة البيزنطيـة في تلك الواقعـة، لم تر في المـردة سوى «وكيل» لمصالحها تحاول استغلاله بالدوافع الدينية، من أجل تحقيق غرض ما. فاذا استطاع «الاصيل» ان يحقق غرضه مباشرة، فسيكون «الوكيل» مزعجاً، وسيجري التخلص منه بأية وسيلة. وغالبا تكون خيبة الامل كبيرة والثمن باهظا.

■ حتى لا نكون وكلاء

وحتى لا نكون وكلاء، وهذا أمر يرفضه بلا تردد، معظم المسيحيين العرب، فما هو الخيار المتاح؟

ثلاث حقب أضطهـد فيها المسيحيـون العرب، وكـانت للدول الغـربية الاوروبيـة في هذه الحقب الثـلاث السيطرة والغلبـة. فمـاذا عن وضـع المسيحيـين العـرب في الحقب الأخرى، حين كانت الغلبة للدولة الاسلامية أو العربية؟

---

(٢) راجع في هذا الشأن الفصل الأول.

يقول الدكتور ادمون رباط على نظام أهل الذمة في الاسلام[٣] بالحرف: «من الممكن، وبدون مبالغة، القول بأن الفكرة التي أدت الى انتاج هذه السياسة الانسانية (الليبرالية) اذا جاز استعمال هذا الاصطلاح العصري، انما كانت ابتكاراً عبقرياً، وذلك لان للمرة الاولى في التاريخ انطلقت دولة، هي دينية في مبدئها، ودينية في سبب وجودها، ودينية في هدفها ألا وهو نشر الاسلام من طريق الجهاد بأشكاله المختلفة، من عسكرية ومثلية وتبشيرية، الى الاقرار في الوقت ذاته بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانهم أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وتراث حياتها، وذلك زمن كان يقضي المبدأ السائد فيه باكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم».

ولا شك في ان المسيحيين المخضرمين، الذين عاصروا الفتح الاسلامي، هم أكثر من لمس الأمر بوضوح، اذا انتقلوا فجأة من سلطان دولة كانت تضطهدهم اضطهادا وصفه بعض المؤرخين العصريين في أوروبا بأنه لا يشبه حتى بأعمال البهائم[٤] (وهي الدولة البيزنطية) الى سلطان دولة حافظت لهم على أديارهم وبيعهم، بعد طول تعرضها للهدم والحرق والمصادرة، كما خيّرتهم بين اعتناق الاسلام والبقاء على دينهم،

(٣) في مجلة «المصباح»، العدد ٣١، تاريخ ٢٠ آذار ١٩٨١، بيروت. والمحاضرة ملحقة بهذا الكتاب.

(٤) محاضرة الدكتور ادمون رباط، في «المصباح»، المرجع نفسه.

بشرط الدخول في ذمة المسلمين، أي بشرط الانضمام الى دولة الاسلام ورفض المقاتلة مع اعدائها[٥]. وكان اكليروس الكنيسة القبطية كله متخفيا في الصحارى هربا من المذابح البيزنطية، فلما جاء الفتح العربي عادت الكنيسة المصرية الى حريتها الكاملة علنا. بل أن عمرو بن العاص عندما فتح الاسكندرية للمرة الثانية (بعد ان تمكن البيزنطيون من استردادها بعض الوقت) خالف السنن الاسلامية فوزع من بيت المال على الاقباط اموالا طائلة، لتعويضهم من العقوبات التي انزلتها بهم الحكومة البيزنطية لمعاونتهم العرب في فتح مصر[٦].

■ حركة دينية أم سياسية؟

وهذا ليس في الواقع، بالامر الغريب. فالدراسات التاريخية الحديثة لا تنظر الى الفورة التاريخية التي انتابت المسيحيين العرب والآراميين والاقباط ضد بيزنطية، طوال ما يزيد على القرنين، على انها فورة خلافات دينية نظرية حول طبيعة المسيح، بل ترى هذه الدراسات الآن، ان الخلافات الدينية لم تكن سوى أسلوب متاح للتعبير عن فوران سياسي يسعى

(٥) الفرد بتلر في كتابه «فتح العرب لمصر» نقلاً عن مطران نسطوري.
(٦) المرجع نفسه.

الى التعبير عن البيئة العربية ـ الآرامية ـ القبطية ومسعاها الى التحرر، وهو التعبير الذي تحقق لهذه البيئة بالاسلام. فتلقفته البيئة وأسلمت إليه قيادها طائعة، فعاد اليها السلام، بعد قرون من المذابح المتعاقبة(٧).

وليس أدل على ذلك من أن النظرية اليعقوبية لم تنتشر إلا في المجتمعات العربية ـ الآرامية ـ القبطية، وفي أرمينيا، وقتئذٍ، وهي جميعا مجتمعات كانت تسعى الى التخلص من الحكم البيزنطي والساساني.

وليس أدل على ذلك من أن حركة «الثـورة» اليعقوبيـة العارمة ظلت تزلزل المنطقة بعنف، برغم الاضطهاد قرنين من الـزمن، لكنها هـدأت فجأة لـدى ظهور الاسـلام وتـوقف الاضطهاد. وليس من تفسير عصري لهذا التحول غير القول، إن المنطقة كانت تبحث عن تعبير سياسي عن الذات، وجدته في الاسلام، أو وجدت في الاسلام متنفساً له.

ولهذا، كان في الاسلام متسع للنصارى، لم يكن متاحا لهم شيء منه في دولة بيزنطية. والذين رفضوا عقيدة بيزنطية،

---

(٧) انظر كتاب جون سبنسر تريمنغهام

«Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times»

مكتبة لبنان، بيروت ـ ١٩٧٩، وغيره من الـدراسات الحـديثة في هـذا الشأن.

لانهم رفضوا سلطانها، استطاعوا ان ينضموا الى «دار الاسلام» أهلا للذمة، دون ان يفقدوا عقيدتهم.

تلك العقيدة التي كان النبي محمد يجلّها.

فبين المبعث والهجرة، تروي التواريخ الاسلامية، قصص المناكفات الحادة بين المسلمين والمشركين في مكة. ونزلت «سورة الروم» في شأن احدى هذه المناكفات، اذ تغلب الساسانيون، وكانوا مجوسا من أتباع دين زاردشت، على الروم المسيحيين، فاحتلت فارس سوريا ومصر، وكادت تحتل آسيا الصغرى بأكملها. يومئذٍ أخذ المشركون في مكة يعربون عن ابتهاجهم، على أساس أن المسلمين كانوا يتمنون انتصار الروم المؤمنين، على الساسانيين عبدة النار. وفي الآية «غُلبت الروم في أدنى الارض، وهم من بعد غلبهم سيَغلبون في بضع سنين، لله الامر من قبل ومن بعد، ويومئذٍ يفرح المؤمنون».

وراهن يومها أبو بكر الصديق على مال، أن الروم ستنتصر على الفرس في سبع سنين. وقيل له لماذا راهنت على سبع سنوات والآية تقول «في بضع سنين»، والعرب ترى ان «بضع» تعني بين الثلاث والتسع أو العشر. . . الى آخر القصة، حتى انتصر الروم فعلا واستردوا الصليب سنة ٦٢٨م. وهذا ما يعيّد له المسيحيون الى الآن في عيد الصليب. اذن كان محمد وصحبه يتمنون انتصار المسيحيين

على الوثنيين، وهل كان غير ذلك ممكنا، وهو الذي كان معجبا بالاحناف النصارى في عشيرته، ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث، أبناء عمومة زوجته خديجة، حتى بالغت بعض الدراسات في نسبة التعاليم الاسلامية الى مدى اطلاع النبي على الديانة النصرانية، في الجزيرة العربية والشام، قبيل الاسلام[٨] وكاد البعض يقول ان الاسلام ان هو الا فرقة مسيحية تقول بالتوحيد هي «الابيونية».

ولا نسارعنّ الى القول ان الاسلام فرش الارض للمسيحيين ورودا، فمسلك العصور القديمة لم يكن يستطيع ان يتخطى مسائل الانتماء الديني، الى الانتماء القومي. ذلك كان منافياً لطبيعة المرحلة. لكن المقارنة، وهي سبيل علمي اكيد للوصول الى صورة واضحة، تعطي دولة الاسلام بلا شك سبقاً تاريخيا مميزاً على ما عداها من الدول في ذلك العصر، ونكاد نقول على بعض الدول حتى في عصرنا الحاضر.

تلك المقارنة، أقامها المسيحيون العرب آنئذٍ، واختاروا في نتيجتها الوقوف إلى جانب الدولة الاسلامية بصراحة، وزراء

---

(٨) بعض هذه الدراسات جدي، مثل دراسات الاب لويس شيخو، وبعضها الآخر لا يبدو كذلك، مثل كتاب «قس ونبي» الذي صدر لكاتب يبدو اسمه «ابو موسى الحريري» مستعاراً.

وكتاباً وموظفين، بل كانوا في بعض الحالات عماد عصبيتها القبلية.

وفي احدى الحقب، كان بعض الولاة العرب يمتنعون عن تنفيذ الشرائع، ويواصلون تقاضي الجزية من النصارى الذين أسلموا. وكان في مسلكهم هـذا ما فيـه، من عدم حض الناس على الاسلام، وخوف من تناقص الخراج. وجاء في التواريخ الاسلامية حـدوث وقائـع كهذه في الحيـرة[٩] وفي مصر[١٠] أيام الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز. فبعث الخليفة في الحالين يأمر بوضع الجزية عمن يسلم، في كتاب شهير، قال فيه: «فضع الجزية عمن أسلم، قبّحك الله، فان الله انما بعث محمدا، ﷺ، هادياً، ولم يبعثه جابياً».

وكان والد الخليفة، عبد العزيز بن مروان، واليا لاخيه الخليفة عبد الملك بن مروان على مصر، فجرت محاولة لمواصلة جباية الجزية ممن يسلم من النصارى وغيرهم، خشيـة أن يتضاءل خراج مصر. لكن هذا الامر استبعد[١١]. وان دل

---

(٩) «كتاب الخراج» للقاضي أبي يوسف (دار المعرفة ـ بيروت، ١٩٧٩) ص ١٣١.

(١٠) «تاريخ الاسلام»، الدكتـور حسن ابراهيم حسن (مكتبـة النهضة المصرية، الطبعة السابعة ١٩٦٤) المجلد الثاني، ص ٣٢٨.

(١١) «فتوح مصر وأخبارها»، ابن عبد الحكم (طبعة مدينة ليدن ـ مطابع بريل، ١٩٢٠) ص ١٥٦.

ذلك، فعلى أن بعض الولاة لم يكونوا يرغبون في اسلام غير المسلمين. فأين نحن من اجبار النصارى على الاسلام بحد السيف، على ما أشاع كثير من المبشرين[١٢]، وأين نحن من أوضاع النصارى في حكم الدولة البيزنطية نفسها.

واذا ذكرنا عهد عمر بن الخطاب لاهل ايلياء (القدس) وامتناعه عن الصلاة في كنيسة القيامة، خوفا من اتخاذ المسلمين ذلك سنّة، يحتجون بها لاخذ الكنيسة من المسيحيين، فانما نذكر حادثة شهيرة، غيرها كثير مما لم يشتهر. فلم يكن هذا المسلك وقفا على علاقات المسلمين بالمسيحيين من العرب. اذ يقول المؤرخ اليهودي الفرنسي الكبير ايفاريست ليفي - بروفنسال[١٣]، في تعقيبه على فتنة المستعربين في قرطبة أيام حكم الامير الاندلسي الاموي عبد الرحمن الاوسط (وهي ثورة القوط المسيحيين الذين كانوا يشكلون مجتمعا واسعا في العاصمة الاندلسية اواسط القرن الميلادي التاسع)، ان بطش الامير الاندلسي بزعماء الفتنة بعد طول انتظار، انما كان من موقف سياسي لا ديني وحين اصبحت

---

(١٢) راجع كتاب «التبشير والاستعمار»، للدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا.

(١٣) في كتابه «L'Histoire de l'Espagne Musulmane»

وهو من أهم مراجع التاريخ الاندلسي. وصدر في اوائل الخمسينيات في ثلاثة مجلدات، وتجري ترجمته الى العربية.

الفتنة تهدد باشعال ثورة فيها خطر انهيار الدولة. وثورة ابن حفصون، في أواخر القرن نفسه في جنوب الاندلس كانت تضم عناصر مشابهة، ولو ان ابن حفصون كان مسلما عندما بدأ ثورته، ثم ارتد في أواخرها. وينسب ليفي - بروفنسال هـذه الثورات، أو الفتن، الى نـوع من اليقظـة القـوميـة الاسبانية ضد حكم غريب، ويستبعد التفسير المذهبي لها، نظراً الى التسامح الديني الذي قال ان المسيحيين القوط كانوا ينعمون به في دولة الاندلس، وهو تسامح لم يكن أثر لمثله في دولتي اراغون وقشتالة، في شمال اسبانيا آنئذٍ.

ومهما يكن فان التاريخ العـربي في طولـه، وفي مصادره الاسلامية والكنسية، على السواء، لا يروي حادثة واحـدة يمكن تشبيههـا من قريب أو بعيـد باضـطهادات بيـزنـطيـة للمسيحيين اليعاقبة، أو باضطهادات محاكم التفتيش الاسبانية للمسلمين، او العرب او المستعربين، فضلا عن اليهود.

اذ تمتعت المذاهب المسيحية العربية على اختلافها، بعد ظهور الاسلام، بالحرية التي كانت تقاتل من أجلهـا تحت حكم بيزنطيـة، منذ دخـولها في ذمـة المسلمين، اي اطـار دولتهم.

واذا استقصينـا مواقف الـدولة الاسـلامية النـاشئة، من أعدائها داخل الجزيرة العربية وخارجها، تبين بوضوح، أن

الاسلام في الجزيرة العربية حارب عبادة الاوثان قبل أي شيء آخر[١٤]، كما حارب التناحر القبلي الذي كانت عبادة الاوثان التعبير العقائدي له، فوحد الله ليوحد عابديه. وخارج الجزيرة العربية، حارب الاسلام سلطان الدولتين الكبريين آنئذٍ، بيزنطية وفارس. ولم يكن النصارى العرب في يوم من الايام على سجل الاعداء، بل العكس.

ووقت كانت جميع دول الارض لا ترضى بدين آخر داخل تخومها، وكانت دولة المسلمين في عز انتصارها وقوتها، وغناها عن الملاينة والمسايرة، أحدثت نظام تعدد الاديان في الدولة الواحدة، نظام أهل الذمة.

وفي رأيي ان نسبة هذا الاجراء الى السمو الخلقي وحده، لا يفسر الامور بعمق. والارجح عندي، ان النصرانية الآرامية ـ العربية ـ القبطية كانت حليفا طبيعيا للاسلام، في اطار الصراع التاريخي الذي ظل يتجاذب المنطقة قرونا قبل ظهور الاسلام.

وهذا يعني ان دولة الاسلام كانت حليفاً طبيعياً للنصارى العرب، ما داموا في صفها السياسي، لا في صف الدول

---

(١٤) راجع «كتاب الاصنام»، لابن الكلبي. وهو عزيز في المكتبات التجارية، لكنه متوافر في المكتبات الجامعية.

العدوة. ولا حاجة اذن بالمسيحيين العرب الى الغرب، بل ان الغرب هو الذي توسل الى مصالـحِهِ، بحماية من المسيحيين العرب، وجعلهم في كثير من الاحيان يدفعون من دمهم ثمن تحويلهم الى ترس يختبىء من ورائه. حدث ذلك كلما كانت تقوم للغرب دولة في منطقتنا: الحقبة البيزنطية، والحقبة الصليبية، والحقبة الحالية. فمن يحمي النصارى العرب من «الحماية الغربية» التي كانت وبالا «عليهم عبر العصور؟

ألم يطلب فارس الخوري السياسي السوري المسيحي البارز[١٥] حماية المسلمين للنصارى العرب، من مرامي الدول الغربية ونوازعها؟.

---

(١٥) على ما جاء في تعقيب الدكتور ظافر القاسمي على محاضرة الدكتور ادمون رباط، في قاعة مونتان، يوم الاربعاء، ٤ آذار(مارس) ١٩٨١.

الفصل الثالث

المسيحيون العرب: لم يَحمهم الغرب فهل تحميهم الدولة العربية؟(*)

(*) نشر في «نهار الأحد»، ٣ أيار ١٩٨١.

إذا كان الغرب لا يستطيع ان يحمي المسيحيين العرب، وفق ما بيَّنته التجارب الكبرى الثلاث التي عاناها المسيحيون في منطقتنا أيام الدولة البيزنطية ثم الدولة الصليبية، فأيام سلطان الحضارة الغربية القائمة الآن، واذا كان يحق للمسيحيين العرب أن يستعيذوا برب الفلق، كلما امتدت اليهم يد الغرب عارضة «الحماية»، على طراز ما حدث في التجارب الثلاث[1] فانقلبت الحماية وبالا على المسيحيين، بل اذا كانت التجارب المذكورة أثبتت ان المسيحيين العرب يحتاجون بالاحرى الى من يحميهم مما يبيته لهم الغرب من دور، كلما رغب في الامتداد الى المنطقة، فهل تستطيع الدولة العربية ان تحميهم؟.

هذا سؤال لا يستقيم الرد عليه الا اذا أزلنا الالتباس في

(١) انظر الفصلين السابقين.

مسألتين، الالتباس فيهما معهود وشائع. وهما مسألة عـلاقة الدين بالدولة، ومسألة التمييز بين الاسلام الدين والاسلام الحضارة.

الدين والدولة في الأصل

أمـا علاقة الدين بالدولة فهي علاقة معقدة للغاية منذ أزمنـة غابـرة، فكيف بها الآن، اذ أصبحت مسؤولـة عن الاقتتال الطائفي في نظر كثيرين[٢].

واذا كان الاقتتال الطائفي في لبنان أحدث اختلالا في آراء الناس بعلاقة الدين بالدولة، فارتأى البعض حاجة الى اقامة دولة طائفية، وارتأى البعض اعتماد العلمانية الغربية، وكلا الامرين هدام او صعب او متعذر التحقيق، فان العودة الى اصول العلاقة التاريخية بين الدولة والدين، قد تعيـد الينا بعض التوازن في نظرتنا الى الأمر، وترد علينا القدرة على رؤية واضحة وعميقة لا تدفعنا الى حلول متسرعة متهورة، او لا تضطرنا الى استيراد حلول سرعان ما تخيب آمالنا وتعيدنا الى الصفر.

---

(٢) في هذا الموضوع يعد كتاب دكتور جورج قرم «تعدد الأديان وأنظمة الحكم» من أهم المراجع الواسعة التوثيق والعميقة التحليل. «دار النهار»، ١٩٧٩، بيروت.

أول ما تعيه ذاكرة التاريخ عن علاقة الدين بالدولة، ذلك التنظيم البدائي الذي أخذت مجتمعات الاستقرار الزراعي الأول في وادي الرافدين وفي مصر تعتمده، لغرضي الحماية العسكرية والاشغال العامة[٣].

وليس ثمة أدلة قاطعة حاسمة، على ان ماجريات الامور كانت على نحو ما نتخيل. لكن أي تصور لما حصل، ينبغي ان يكون منطقياً ومعقولاً، ولا يتناقض مع المكتشفات الاثرية المختلفة المتعلقة بتلك الازمنة.

والتصور المنطقي لما حدث آنذاك هو الآتي:

لدى اكتشاف الزراعة، سعى الكثير من الناس الى استيطان جوار الانهار، مللا من حياة البداوة او هرباً من عناء الاضطرار الى التنقل وراء الطعام. فلما اجتمع كثيرون على مواقع صناعة الطعام، التي هي مناطق الزراعة، أخذت الحاجة الى تنظيم للمجتمع الزراعي تتكون مع الوقت، لحل مشكلاته. المشكلة الكبرى هي بالطبع دفاعية. فان المجتمع الزراعي ثابت في مكانه، ومن يريد غزوه لا يحتاج الا الى

(٣) في هذا الشأن يمكن الرجوع الى عديد من مؤلفات الدكتور رشيد الناضوري (جامعة الاسكندرية)، أو كتاب «ما قبل الفلسفة» لهنري فرنكفورت وغيره (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) بيروت، ١٩٨٠، أو كتاب «الغصن الذهبي» لفريزر، وغيرها.

عنصر المفاجأة والمباغتة، فتكون له الغلال والدواجن، وما أراد من السبي. أما المشكلة الثانية فهي الاشغال العامة، فان المجتمع الزراعي الناشيء الذي أخذ يتراكم فيه المزارعون عند حافة النهر، ازدادت حاجته الى الترع والسواقي، لجر المياه الى مساحات جديدة، بعيدة نوعاً عن النهر، بغية تخفيف الضغط وتجنب الاقتتال على الارض وتحقيق سلام اجتماعي بين المزارعين أنفسهم. في هذا الظرف برز رجل يمتلك صفة القيادة، فانتقى من المزارعين عدداً من الرجال سيطر بهم على هذا المجتمع الناشيء، وأخذ يتقاضى «الخوات» ليعيل رجاله وينـظم بهم الحمايـة الجماعيـة وينشيء الاشغال. وارتضى المزارعون هذا الوضع لانه أوقف الغزوات وأقام نـوعاً من الامن الاجتماعي في مدينتهم الاولى.

هذا العقد الاجتماعي الاول، لا شك في انه انفرط مرات كلمـا كانت تنفرط زعامته، حتى قيض له من ارتأى ان دواعي الاستمرار تقتضي التطوير في هذا النظام. فتفتق ذهن أحدهم عن فكرة انشـاء عقيدة تحـول دون انفراط التـزام المزارعين للعقد القائم بينهم. فالضريبة العينية التي يدفعها المزارع الى الهيكل (بيت الدولة، ومخزن الغلال) انما هي جزء مما أنزلته الآلهة على المزارع من المطر او الفيضانات الموسمية. ومن لا يدفع العشر الى الآلهة، فانما يتعرض للجفاف في سنة

مقبلة، كما يتعرض للغزو والفتك والويلات المختلفة. مثل هذه العقيدة، تبين على ما يبدو، أنها كانت مجدية للغاية في أحكام طوق العقد الاجتماعي في المدينة الاولى. فلم تبق المدينة في حاجة الى بأس مؤسسها وسطوته، بل أصبح لها سند آخر في غياب المؤسس، هو الدين، الذي ضمن بقاء العقد الاجتماعي اجيالا وراء أجيال، ما دامت الضرائب مستمرة على تغذية الهيكل، وما دام الهيكل ينفق بنجاح على مهمات الدفاع والاشغال العامة، تحت اشراف ملك المدينة، الذي اصبح كاهناً ايضاً.

في ضوء هذا المفهوم لنشأة الأديان الطبيعية يتضح أن الغرض الأساسي كان التنظيم الاجتماعي والسياسي، لإقامة نوع من «الضمان الجماعي» العسكري والاقتصادي. ولا نرى استثناء في هذا، حتى في الاديان الموحى بها. فالاغراض الدنيوية للدين (اذا صرفنا النظر عن أية اغراض من طبيعة غير مادية) بقيت في اطار تحقيق هذا الضمان الجماعي للمجتمعات. وفي سورة قريش «فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» اختصار عظيم البلاغة لغرضي الدين الاقتصادي والدفاعي.

ولعل الاسلام أوضح الاديان في هذا الشأن، إذ نسخ الضمان الجماعي القبلي، القائم على العصبية القبلية ومبدأ

الثـأر ليحـل محله الضمـان الجمـاعي للدولـة العـربيـة الإسلامية[٤].

ولعل في بعض الكتابات الشائعة الآن، التي تتحدث بمرارة على الدين، وانه مصدر المصائب والفتن في التاريخ، تسرعاً وسطحية في تحليل الامور. فمنشأ الاديان القديمة، كان حاجة مادية اجتماعية وسياسية. واذا نحن تخيلنا عالماً يخلو فجأة من الدين، أثمة شك في ان صراع المصالح سيستمر في هذا العالم الخالي من الدين؟ اثمـة شك في ان أصحـاب المصـالـح المتصارعة لن يعدموا وسيلة لخوض صراعهم السياسي تحت رايات «عقائدية» أخرى غير الدين؟

ان تفسير الصراع في لبنان مثلا، انـه صراع ديني، لا يوضح الامور بعمق. إن ما يسمى بالفريق المسيحي في لبنان هو على خصام مع المسيحيين الذين يخالفون موقفه، فيما هو يتعاون مع المسلمين الذين يؤيدونه. وهذا ينطبق ايضاً على الفريق الآخر. إذن فالمسألة سياسية في حقيقتها، وان كانت الواجهات التي يجري وراءها الصراع، دينية. فاذا اتفق اثنان في الدين والسياسة، فلا بأس. أما اذا اتفقا في الدين واختلفا

---

(٤) راجع المراجع الغزيـرة في هذا الشـأن، في الاحاديث، وفي سـور القرآن، والمؤلفات التاريخية التي تتنـاول نشأة الـدولة الاسـلامية في المدينة، وموقفها من «التبدي» والعصبية القبلية والأخوة الاسلامية.

في السياسة، فان هذه هي التي تغلب.

وقبل ان نتحوّل من صبّ نقمتنا على الدين الى صبّها على السياسة، نسارع الى القول ان المصالح السياسية المتصارعة هي من طبيعة العيش الجماعي في كل عصر ومجتمع. واذا تبدلت الواجهات، فمن السذاجة ان نتوقع انتهاء الصراعات. ولا بد من اعادة النظر في المواقف المتسرعة من الدين الذي كان طوال ألوف السنين، الوسيلة الوحيدة المعروفة لتنظيم المجتمعات البشرية، ونشأت ضمن صيغِهِ المختلفة حضارات لامعة كانت على الدوام طليعة الحضارة في العالم.

ولا نقصد بإعادة النظرِ هذه الى تبرئة الدين، فذلك من هموم غيرنا. بل نقصد الى معرفة أعمق لعوامل التاريخ والاسباب والنتائج فيه، حتى لا نتهم الدين، فنزيله من مجتمعنا، لنكتشف بعد حين ان الصراع السياسي العقائدي لم يتوقف، وان شيئا لم يتغير.

ولعل الاعتراض الاهم في اطار هذه النظرة الى الدين هي القول: ان الدين هو مؤسسة اجتماعية سياسية ترمي الى احكام بناء «الضمان الجماعي». فاذا تحول الدين من وظيفته هذه، وأصبح عامل تفريق لا تجميع، فذاك دليل فشله وحافز على البحث عن وسيلة أرقى لتحقيق «الضمان الجماعي».

ان هذا الاعتراض يسوقنا الى ايضاح الالتباس الثاني.

الاسلام الدين والاسلام الحضارة

● كثيراً ما يختلط الاسلام ـ الدين بالاسلام ـ الحضارة في أذهان الناس. وهذا الاختلاط مصدر التباسات عميقة ومتعددة لدى المسلمين والمسيحيين على السواء.

ولعل مكرم عبيد، الزعيم السياسي المصري القبطي الشهير، كان يرى بوضوح هذا الأمر حين قال في إحدى خطبه، ما معناه: أنا مسيحي في ديني، مسلم في وطني. ولعل الاختلاط بين الإسلام الدين والإسلام الحضارة عائد الى أن حضارة الإسلام نشأت على أكتاف هذا الدين فأشعل حركتها بناره، وانطلقت في العالم بقوة اندفاعه. لكن الحضارة الاسلامية في الواقع أنشأت بعض مجتمعات تنتمي إليها في كل شيء إلا الدين. ولا شك في ان المسيحيين العرب اليوم، هم من أولئك الناس الذين ينتمون الى حضارة الاسلام، دون ان ينتموا الى الاسلام ديناً.

إذن يعترض البعض على تسمية هذه الحضارة بالاسلام. وقد لا يختلف الامر كثيراً اذا سميناها بالحضارة العربية، مع بعض الاعتراضات الاكاديمية الثانوية. الا اننا نستطيع القول ان المضمون هو الاهم، وان اختلفت التسميات. واذا كان

توماس أرنولد يسميها: «تراث الاسلام، أو كان غوستاف لوبون يسميها «حضارة العرب»[٥]، فان المسيحي العربي يحمل في وجدانه هذا الرصيد الحضاري الذي يشترك فيه مع المسلم، منذ ان قامت الدولة العربية الاسلامية حتى الآن.

أفلا يطرب العربي المسيحي، مثل المسلم، لبلاغة اللغة العربية، وقوة الشعر العربي المسبوك بلغة القرآن؟ أفلا تهزه الموسيقى العربية الغنائية المنحدرة من التجويد القرآني؟ أفلا تستهويه خطوط العمارة الاسلامية؟ أفلا تعتمل في صدره عواطف من نمط عربي لا شبيه لمثلها في الغرب؟ أفلا تحكم عقله مفاهيم اجتماعية وعائلية مماثلة لما يحكم عقل المسلم العربي؟.

اذن فما الذين يفرقه عن المسلم، سوى تلك المساحة الضئيلة التي يحتلها الدين من حياتنا؟ وأقصد بالدين العقيدة الأخروية والصلاة والصيام والفروض، ولا أقصد الاقتتال الطائفي الذي هو اقتتال سياسي في حقيقته.

اذن فالاسلام ـ الحضارة (أو فلنسمها العروبة في حال المسلمين والمسيحيين العرب) هي عامل تجميع لا تفريق. وليس أدل على ذلك من أن جميع الذين عملوا لتعميق

---

(٥) في كتابيهما اللذين يحملان هذين الاسمين.

الاختلافات، بغية تسعير الخلافات، لم يقتصر عملهم على الصعيد الديني. بل ابتكروا مسألة «اللغة العامية» والحرف اللاتيني[٦]، ليفصلوا المسيحيين العرب عن حضارة العروبة في الصعيد اللغوي. وأخذوا يشككون في الموسيقى العربية ويسعون الى الغاء شخصيتها القومية، من طريق الغاء ربع الصوت، واتهام هذا العنصر الموسيقي المدهش، بأنه سبب «تخلف» الموسيقى العربية، وغرضهم الحقيقي دفع المسيحيين العرب، الى توسيع المساحة التي يتميزون فيها حضارياً عن المسلمين، لان الاختلاف في الدين لم يكن كافياً لتحقيق غرض تمزيق مجتمع العروبة، الذي سعوا اليه.

وان من السذاجة ان نعتقد، ان الغرب انما يسعى الى الغاء الاسلام، حتى تتحقق وحدة المسلمين والمسيحيين العرب.

ولعل من السذاجة والتخلف معاً ان نساير هذا المسعى أملا في إزالة عائق في سبيل الوحدة ضمن العقد الاجتماعي القومي. فهذه الوحدة في العروبة، قائمة على أسس حضارية

---

(٦) راجع كتابات الدكتور أنيس فريحة، والدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ في هذا الصدد، خصوصاً كتاب «التبشير والاستعمار» للاخيرين، ومواقف لا حصر لها لسعيد عقل ويوسف الخال، وغيرهما.

إسلامية عربية عميقة الجذور في شخصيتنا المميزة بين شعوب العالم. والغاء هذه الاسس هو الذي يفرط عقد هذه الوحدة في العروبة.

ولا نظن اننا اذا ابرمنا عقداً جماعياً جديداً يزيل بموجبه العرب الاسلام الحضاري، نكون نزعنا من يد الغرب سلاحاً يعمل بواسطته على تمزيقنا. بل العكس. ذلك ان الغرب هو الذي يشجع على توسيع مساحة الاختلافات، وأغراض الغرب من هذا التشجيع لن تتوقف مهما تنازلنا. بل لعل الامل الوحيد في وقف محاولات الغرب توسيع مساحات الاختلاف الحضاري بين المسيحيين والمسلمين العرب، هي في العمل على تضييقها. فلا يكتفي المسيحيون العرب فقط بالتمسك بعروبتهم الحضارية في مسائل كاللغة والموسيقى والتربية، بل لعلهم يحسمون الامر حين يزيلون كل اختلاف سياسي، قد يميزهم عن المسلمين في موقفهم من الصدام القائم مع الغزو الحضاري الغربي.

ان محاولة الغرب تغريب المسيحيين العرب، في اللغة والمزاج الفني وأساليب العيش والتوجه السياسي والاجتماعي، لا يمكن إدراجها إلا ضمن المساعي الغربية لدق «مسمار جحا» في جدار البيت العربي.

ومن الواضح ان هذه المساعي سياسية لا دينية.

والضمان الوحيد حتى لا يظل المسيحيون العرب يدفعون ثمن مد النفوذ الغربي وجزره كل مرة، هو رفض هذا التغريب، وتوسيع مساحة العيش المشترك مع المسلمين الى أقصى الحدود، حتى لا يبقى من مساحة اختلاف في حياتنا غير الدين. والاسلام في دولته التاريخية اتسع لمواطنين مسيحيين، بل اثبت انه أكثر اتساعاً للمسيحيين العرب، من دولة بيزنطية المسيحية. ولا شك في ان الدولة العربية الحديثة تستطيع بلا عناء ان تكون في مثل رحابة الدولة العربية الإسلامية الأولى على الأقل. ولكن ذلك لا يظل مضموناً، إذا لم يقاوم المسيحيون العرب محاولات تغريبهم.

وإذا شارك المسيحيون العرب المسلمين أذواقهم ولغتهم ووجدانهم الاجتماعي، فإن خير تكريس لهذه المشاركة، هو الانضمام بلا تردد إلى العروبة الحضارية والسياسية الرافضة للسيطرة الغربية.

ان هذه المشاركة تهم المسلمين، لانها أحد ضمانات سيادتهم.

لكنها تهم المسيحيين أكثر، لأنها ضمان مصيرهم.

وفي امكان المسيحيين العرب ان يتداولوا كلمة السر العظيمة التي رددها في مثل ظروف اليوم الزعيم اللبناني

يوسف كرم منذ أكثر من قرن إذ دعا المسيحيين الى عدم تعليق الآمال على الدول الاجنبية لان لها مشاريعها ومطامعها الخاصة.

وهو الذي قال في تقسيم لبنان الى قائمقاميتين ان «تجزئة الحكم الذاتي لا يمكنها ان تكون تقدماً، فاختفى الامن وتولدت الفتن الدينية ثم تطورت شيئاً فشيئاً فأدت الى المجازر المريعة سنة ١٨٦٠»[٧].

ويستطيع المسيحيون العرب ان يجدوا دائماً من يشجعهم على مخاصمة أبناء قومهم والالتحاق بالغرب. لكنهم لن يستطيعوا دائماً ان يجدوا من يقاتل بالنيابة عنهم. ولو أراد الغرب ان يقاتل بنفسه لما اتبع سياسة دفع المسيحيين الى خطوط النار.

وأثبت التاريخ للمسيحيين العرب ان التغريب يسوقهم الى الهلاك، وان التعريب أكثر مدعاة الى اطمئنانهم الى مصيرهم.

---

(٧) راجع «تاريخ سورية الدنيوي والديني» للمطران يوسف الدبس، المجلدان الثامن والتاسع.

الفصل الرابع

المسيحيون العرب: أية دولة تناسبهم وتحميهم؟ (*)

(*) نشر في «نهار الأحد»، ١٠ أيار ١٩٨١.

اذا أراد المسيحيون العرب ان يختاروا نوع الدولة التي تناسبهم، حتى يعملوا لاجل تحقيقها، فعليهم اولاً ان يسألوا انفسهم بعمق، واخلاص، وجد، لان المسألة كما هو واضح، مسألة مصير:

هل يحزن ساسة الغرب لاضطهاد المسيحيين العرب، او يبتهجون؟

فعلى الاجابة بصدق وعمق ووضوح عن هذا السؤال، والابتعاد عن خداع الذات في الاجابة عنه، يتوقف تسلسل التحليل السليم، الذي يقودنا الى اختيار موفق لما يناسبنا، نحن المسيحيين العرب، من اشكال وأنماط للدولة العربية الحديثة المتاحة.

إن استبعاد التأثر يالاقوال العاطفية التي تصدر عن الغرب بين الحين والآخر، في ما يخص مصير المسيحيين العرب، هو

من ضمانات الموضوعية واجتناب الخداع الذاتي. وليس من المبالغة القول، ان برميل نفط، في الحسابات الغربيـة غير المعلنة، أهم من عشرة مسيحيين عرب. تلك حقيقة لا بد من وضعها بوضوح في أساس كل تحليل سليم. وهي أمر ما عاد احد ينكره على اي حال، الى أي فئة سياسية انتمى.

يقول برنارد لويس[1] ان التغريب في المنطقة العربية، أدى الى تفكيكها وتجزئتها. وان هذا التفكيـك السياسي واكبـه تفكيك اجتماعي وثقافي. والواقع ان الحاق المنطقة بالغرب، لم يكن ممكناً إلا من طريق تفكيكها وتجزئتها. ولو أعطيت لأي سياسي في العالم، مسألة يسألونه فيها ان يسعى الى الحاق المنطقة العربية بالغرب، لما اختار غير الاسلوب الذي اختاره الغرب فعلاً، وهو تفكيك المنطقة بالفتن الطائفية، والتفتيت الاجتماعي والثقافي، وافتعال الخصومات والفروقات، وتوسيع مواطن الاختلاف والمبالغة في ابرازها. وليس من شك في ان من يسعى الى هذا، يحزنه مشهد السلام بين الطوائف، ويسعده اندلاع التقاتل بينها. ولعل من يستبعد دور الغرب في اشعال فتيل هذا التقاتل، هو واحد من اثنين: خادع او مخدوع.

---

(١) في كتابه «The Middle East and the West» ص ٤٤، طبعة هاربر تورتشبوك، ١٩٦٦، وبرنارد لويس مؤرخ بريطاني، يميل الآن الى تأييد الصهيونية.

لقد أدى امتداد النفوذ الغربي الى بلاد العرب، عبر الموجات الثلاث البيزنطية والصليبية والمعاصرة، الى اضعاف مسيحيي المنطقة وتقليص وجودهم وتهديد مصيرهم.

ولا بد للمسيحيين العرب من نبذ المشروعات الغربية التي تضع مصيرهم في المهب وتدفعهم الى المقامرة بوجودهم لتحقيق مصالح ليست مصالحهم.

وأمام المسيحيين العرب في المقابل ان يختاروا واحدة من الصيغ المتاح للدولة العربية الحديثة ان تحققها:

- فإما الدولة العربية المهادنة للغرب، القانعة بحدود التجزئة. وهي طراز شائع الآن بين الدول العربية. وأثبت هذا الطراز من الدول، خلال ست سنوات من الحرب اللبنانية، انه عاجز عن تحقيق حماية للمسيحيين العرب في مواجهة مشروعات غربية تسعى الى تسعير الاقتتال الطائفي ولا تتردد في المقامرة بمصيرهم.

- وإما «دولة الخميني، أو دولة بريجنيف»، كما قال أحدهم أخيراً في استعراضه لاحتمالات المستقبل، وكلا الأمرين لا يقوم عليه إجماع مسيحي عربي على التأكيد.

- وإما دولة العروبة المعادية للهيمنة الغربية. وهي دولة اقترحها جمال عبد الناصر طوال ثمانية عشر عاماً من الممارسة

العملية، دون أن تحظى للأسف بتأييد من يصطلح الآن في لبنان على انهم «قادة المسيحيين»[٢] ولعل أوان الندم على هذا لم يفت بعد، ولعل العودة الى هذه التجربة ودراستها باخلاص وعمق جديرين بمن يواجه المصير، تجيب عن السؤال المطروح: أية دولة تناسب المسيحيين العرب وتحميهم؟.

ان من يتعمق في دراسة الأمر، تنتابه الدهشة، لموقف «القادة المسيحيين» من هذه التجربة، برغم وضوح مناسبتها لمصالح المسيحيين العرب وقدرتها التلقائية على حمايتهم.

طرحت دولة عبد الناصر، دولة العروبة المعادية لسيطرة الغرب، صيغة يمكن ان تؤدي في النتيجة الى ما أدت اليه دولة الاسلام الاولى، التي أوقفت اضطهاد بعض المسيحيين العرب وأنهت محاولات بيزنطية دفع بعضهم الآخر الى خط النار دفاعاً عن مصالحها. ووقت كانت مصلحة بيزنطية تقضي ان تفكك دولة الاسلام الاولى، عبر محاولة الحاق المسيحيين العرب بها، ودفعهم الى حماية مصالحها، وسداد ثمن هذه الحماية، كانت مصلحة الدولة الاسلامية تقضي الفسح في متسع رحيب للمسيحيين العرب في أرجائها، لضرب محاولات

---

(٢) سنستخدم هذا التعبير بين مزدوجين، لان ثمة قادة مسيحيين لا يندرجون ضمن هذا الاصطلاح الذي شاع في الحرب اللبنانية، ولان ثمة من يقول قول هؤلاء «القادة المسيحيين» دون ان يكون مسيحياً.

التفكيك من الداخل[٣]. وتشاء الصدف، او هي طبيعة الامور بالاحرى، ان الدولة الاسلامية الاولى التي أنهت اضطهاد المسيحيين العرب، هي نفسها التي انهت دول الالتحاق: دولة بني غسان الملتحقة بالغرب البيزنطي، ودولة المناذرة الملتحقة بالشرق الساساني. وهل من الغريب حقاً ان تكون الدولة الرافضة للهيمنة الخارجية، هي نفسها الدولة الرافضة للتفكك الداخلي والاقتتال الطائفي؟ أثمة شك في هذا الترابط العضوي بين التفسخ الداخلي والاقتتال الطائفي، والهيمنة الاجنبية؟ ان رفض الدولة العربية الحديثة للسيطرة الغربية، وتجنبها الالتحاق بالشرق، لهما خير ضمان لحرص دولة العروبة على حماية المسيحيين العرب ومنع اضطهادهم، والفسح في متسع رحيب لهم في كل صعيد.

فمن يخدم أغراض الغرب، لا بد له من التصفيق للاقتتال الطائفي، ان لم يكن هو مفتعله. ومن يواجه هذه الاغراض ويقاوم السيطرة الغربية لا بد له من محاولة منع هذا الاقتتال وإرساء نظام مكين يحمي المسيحيين، ويمنع الغرب من ان يزيّن لهم طموحات مريضة تسوقهم في نهاية المطاف الى مجافاة بيئتهم الطبيعية، واحداث شروخ فيها يدفعون هم ثمنها،

(٣) راجع واقعة بني تغلب مع الخليفة عمر بن الخطاب عند فتح العراق، وحوافز التسوية التي تمت، في معظم المصادر الاسلامية الاولى.

ويقطف الغرب ثمارها الدامية.

كان من أبرز ملامح علاقة المسيحيين العرب الجدلية بدولة عبد الناصر، ان دولة العروبة المعادية للسيطرة الغربية، لم تقف الى جانب الدول الاسلامية بالانحياز الطائفي، بل ناصرت قبرص، ذات الكثرة المسيحية، في مواجهة تركيا المسلمة، لما رأته من علاقة بين ساسة انقرة آنئذ ومشروع الغرب للهيمنة على المنطقة. لم يشعر أحد يومئذ، ان عبد الناصر كان محرجاً في موقفه على الاطلاق. بل كان المحرجون الحقيقيون هم الذين كانت مواقفهم المعلنة تظهر الدفاع عن المسيحيين، فيما كانت مواقفهم الحقيقية تضمر خدمة المشروع الغربي، المناقض (هذه المرة بوضوح) لمصالح فئة مسيحية. وليس من شك في ان هؤلاء لزموا الصمت من هذه المفارقة. ولو كانت حكومة أنقرة معادية للغرب وحكومة قبرص مؤيدة له، لكنا قطعاً استمعنا الى صراخ مرتفع حول ذبح المسيحيين واضهادهم، بدلاً من الصمت المطبق.

وحين ان دولة الالتحاق بالغرب لا تضمن مصلحة المسيحيين، كما اتضح من التجربة القبرصية، بل تضمن مصلحة الغرب، بغض النظر عما يلحق بالمسيحيين، فإن دولة العروبة المعادية للسيطرة الغربية تضمن ولا شك مصلحة المسيحيين، بل ان حمايتها لمصالح المسيحيين ومصائرهم هي

من اهم ضمانات نجاحها في مواجهة الغرب.

□ الأسلوب الغربي للسيطرة

ان الغرب يسعى الى السيطرة من طرق مختلفة، اهمها وأخطرها افتعال وتشجيع مناخات حضارية وهموم سياسية مختلفة ومتميزة، بل متناقضة إذا امكن، هنا وهناك. ذلك أن الدين وحده لا يضمن للغرب ان ينجح في ترسيخ الانفصال العربي. فيعمل مباشرة تارة، أو بالواسطة طوراً، على الترويج للّغة العامية، لأن اللغة الفصحى مساحة لقاء مشترك لكل العرب. أما العامية فتضمن خلق دوائر تفاهم لغوي أضيق. كما يعمل على الترويج ابرازاً وتضخيمًا لهذه الفروق أو تلك، في خصائص العمارة العربية، في هذا الإقليم العربي أو ذاك، او الفروق في العادات الشعبية او التراث الموسيقي او الفني، ليس رغبة في اغناء فهمنا لحضارتنا الغنية المتنوعة، بل افتعالاً لأسس حضارات مصطنعة، حتى إذا افتعل هذه الأسس أصبح إعلان ولادة قوميات انفصالية هنا وهناك أمراً ميسوراً.

أثمة تفسير آخر لهذا الترابط بين رفض اللغة العربية الفصحى والسعي إلى إحياء العامية واعتماد اللغات الاوروبية في آن؟ إن التمسك بالعامية تعبيراً عن عصبية محلية حادة، والترويج لاستخدام اللغة الفرنسية مثلاً، تعبيراً عن «انفتاح

حضاري عالمي انساني»... قد يبدوان متناقضين، إلا أنهما منطقيان جداً في إطار مساعي الغرب الى تفكيك ملامح الحضارة العربية الموّحدة (بفتح الحاء وكسرها)، وصولاً الى دولة الالتحاق بالغرب.

أثمة تفسير آخر لهذا الترابط بين رفض الانتماء الى العروبة والسعي الى انشاء قومية محلية والالتحاق سياسياً بالغرب في آن؟ ان التمسك بالدائرة اللبنانية الرافضة للعروبة تعبيراً عن مفهوم سياسي اقليمي ضيق، والرغبة في الانتماء الى الغرب، قد يبدوان أيضاً متناقضين. فترى شخصاً واحداً، يعبر حيناً عن رغبته في الانغلاق على نفسه ورفض محيطه، ويعبر حيناً آخر عن الانفتاح الى أقصى الحدود رغبة في انتماء «عالمي». وانما هذا وذاك ليسا سوى هروب من الانتماء الطبيعي الى البيئة العربية. فمرة يكون الهروب الى الداخل، ومرة يكون اهروب الى الخارج... ولا تناقض بين الأثنين.

على ان نتيجة مساعي الالحاق، او الالتحاق بالغرب، ليست مضمونة، ولا يمكن التكهن بمسار المعركة على هذا الصعيد. فردة الفعل الايرانية على مشروع الحاق ايران بالغرب اثبتت ان كيمياء الشعوب حين تتفاعل، قادرة على افراز منتجات، لا يتوقعها كومبيوتر البنتاغونات في العالم. ومن المؤكد ان «قادة المسيحيين» في لبنان، بما تحت ايديهم من

امكانات بشرية وسياسية واقتصادية، لا يستطيعون ضمـان التحكم في مسار، الغرب كله يشك في قدرته على ضبطه. والممكن الوحيد الذي يمكن ضمانه الى حد معقول هو التخلي عن إرادة الالتحاق، والسعي بدلاً من ذلك إلى محاولة التعبير المشترك عن مساعي العرب الى انشاء دولتهم المستقلة، المناهضة لاي التحاق بالغرب او بالشرق.

إن مواقف «قادة المسيحيين» في لبنان تقودهم الى مفارقات وتناقضات لم تكن لتحدث، لو ان هؤلاء القادة فصلوا بين ما يظهرونه من دعوى حماية المسيحيين، وما يضمرونه من رغبة في الالتحاق بالغرب.

من هـذه المفارقـات الغريبة، ذلك المـوقف حين هلّلو للإخوان المسلمين في معركتهم مع جمال عبـد النـاصـر في الخمسينيات. لم يكن هذا الموقف هفوة غير مقصودة. فهذا التهليل تكرر في السنوات الاخيرة، خلال معركـة الاخوان المسلمـين مع سـوريـا. فكيف يمكن لمن يصفق لـلاخـوان المسلمين ان يقنع الناس بصدقه حين يكشو من «التعصب الاسلامي» عند العرب، والتخوف على مصير المسيحيين؟ ان الشكوى من التعصب في هذه الحال لا تنم منها رغبة صادقة في نبذ التعصب، بل رغبة في تسـويـغ قرار الانسـلاخ من العروبة، بدعوى تعصب المسلمين. وفي هذه الحال وحدها،

يصبح تعصب المسلمين مرغوباً فيه، لانه يوفر للراغبين في الالتحاق بالغرب، الغطاء المطلوب. فيتحول التعصب الاسلامي الطائفي، ومشروع الحاق المسيحيين بالغرب (اي مشروع المقامرة بمصيرهم وبأرواح ابنائهم) وجهين لعملة واحدة، فلا ينتعشان الا معاً ولا ينكفئان الا معاً. ومن يسعى الى الاول يحض على الثاني، ومن يرغب في الثاني يحث على الاول.

□ تسامح أم دفاع عن النفس؟

وما دمنا نفضل في الغالب الرأي الاوروبي، حتى في مسائلنا التي نعرفها أكثر، فماذا يقول برنارد لويس (وهو فوق هذا يهودي) على العرب والتسامح؟

«نجح الاسلام التقليدي، ولم تنجح المسيحية في الحقيقة يوماً، في جمع التسامح الديني مع الايمان الديني العميق، فلم يشمل الاسلام بتسامحه غير المؤمنين فقط، بل الهراطقة ايضاً. وهذا اختبار أصعب بكثير. . . وفي الصعيد الاجتماعي كان الاسلام ديموقراطياً على الدوام، او كان بالاحرى يقول بالمساواة، فيرفض المجموعات المنغلقة كما في الهند، ويرفض الامتيازات الارستوقراطية كما في أوروبا»(٤).

---

(٤) برنارد لويس: المرجع نفسه، ص ٥٧.

أما آدم متز، فيفرد صفحات للتحدث على احتفال المسلمين «بجميع الاعياد النصرانية، طوال العام»[٥]. وهو يقول على المسلمين: «تركوا النصارى يتصرفون في امورهم الدينية من غير تدخل... واشتركوا في الجانب الاجتماعي المسلي من تلك الاعياد، كما فعل آباؤهم من قبل، فمثلاً كانت اعياد اهل بغداد تكاد تكون نصرانية من كل وجه، وكانت أعياد القديسين في مختلف الاديرة أكثر الاعياد نصيباً من احتفال الناس، ولكن هذه الاديرة كان لا تخلو حتى في غير الاعياد، من الزوار الذين لا تربطهم في الدين صلة».

ويضيف متز:

«ولم يكن الحال في مصر يختلف كثيراً عما تقدم... وكان يوم أحد الشعانين يوم عيد كبير للعامة، ولا بد أنه كان عيداً قديماً من أعياد الاشجار، وخصوصاً اشجار الزيتون... وكانت الوصائف في يوم أحد الشعانين يظهرن في قصر الخلافة ببغداد متزينات في ثياب جميلة غالية، وفي اعناقهن صلبان من الذهب، وبأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون.

«وفي القرن الرابع الهجري كان رسم النصارى ببيت

---

(٥) آدم متز: «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري»، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريدة ـ المجلد الثاني، ص ٢٨٢ ـ مكتبة الخانجي، القاهرة/ دار الكتاب العربي، بيروت.

المقدس في هذا العيد ان يحملوا شجرة من شجر الزيتون من الكنيسة التي بالعازرية الى كنيسة القيامة، وبينهما مسافة بعيدة، ويشقوا بها شوراع المدينة بالقراءة والصلوات، حاملين الصليب مشهوراً، ويركب والي البلد في جميع موكبه معهم...

... «وفي يوم عيد الفصح ببغداد، كان المسلمون والنصارى يقصدون دير سمالو، الى شرق بغداد... ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو الا حضره، وهناك يدور الشراب».

ولا تكاد التواريخ الاسلامية وكتابات المستشرقين تخلو من مثل هذه الاشارات المختصرة او المطولة، الى مناخات كهذه تنم منها روح القبول المتبادل والتسامح في الدولة العربية الاسلامية.

هذا التسامح، أرى ان نسبته الى سمو خلقي، ليست تفسيراً مقنعاً. فالعروبة التي اقامت دولتها الوحدوية الاولى بقوة الدفع الاسلامية، والتي تصارع الغرب الآن من اجل الاستقلال، لها مصلحة عليا في منع اضطهاد المسيحي العربي، لمنع التفتت والتفكيك. والغرب، في المقابل، يحتاج الى هذا التفكيك. والتسامح الديني هو دفاع عن الذات في

دولة العروبة المعادية للسيطرة الغربية، حين ان التقاتل الطائفي هو الحليف الطبيعي للسيطرة الغربية. واذن فموقف دولة العروبة الايجابي من المسيحيين العرب، هو موقف مضمون، لأنه من اهم ضمانات نجاحها في فك سيطرة الغرب. ولا بد للمسيحيين العرب من ان يضعوا هذه الحقيقة بوضوح في أساس موقفهم، حين يهمون باختيار الدولة التي تناسبهم وتضمن حمايتهم.

وعليهم ان يعاودوا على الدوام طرح السؤال الخطير على أنفسهم:

هل يحزن ساسة الغرب لاضطهاد المسيحيين العرب، او يبتهجون؟

□ اعادة نظر حضارية وسياسية

عندها فقط، سيكون المسيحيون العرب قادرين على اعادة النظر بعمق واخلاص ووضوح، في المواقف الحضارية والسياسية التي ركز الغرب طوال قرنين جهوده على محاولة دفعهم اليها.

ان المسيحي العربي الذي يرى ما حدث للمسيحيين في لبنان، في السنوات الست الماضية، ولا يرى مع ذلك حاجة الى اعادة النظر في قرنين من تاريخ محاولات الالتحاق

بالغرب، انما هو واحد من اثنين:

* أما انه غير عالم بحقيقة الخسائر الفادحة التي لحقت بالمسيحيين في ارواحهم وممتلكاتهم ومكانتهم.

* وأما انه من أولئك الذي تنتابهم غريزة الانتحار الجماعي التي تنتاب بعض الجماعات أحياناً لدوافع غامضة.

أما المسيحيون الذين لا يرغبون في الانتحار، فأمامهم ان يُغلبّوا غريزة البقاء على نحو ملح وحاسم، وعليهم ان يتساءلوا مرة اخرى بصدق وعمق تبصر:

- هل الضعف العربي مضمون بقاؤه إلى الأبد (وفي الحقبة المقبلة بالذات، وبشائرها واضحة المعالم)؟

- هل المدد الغربي مضمون الى الأبد (وهو حتى في مستواه الراهن أدى الى الحاق هذا المقدار من الاذى بالمسيحيين)؟

- هل تستطيع الحدود السياسية التي رسمها الغرب ان تصد امكانات التفاعل وعلاقات التأثر والتأثير بين لبنان ومحيطه العربي (وفقاً لطموحات أغنية وديع الصافي المأثورة «سيجّنا لبنان»)، وتقيم حزاماً عازلاً حول اللبنانيين، وهو الأمر الذي كرست الحرب اللبنانية فشله النهائي؟.

إن الإجابة عن هذه الأسئلة بإخلاص، لا بد من أن تكون بالنفي، وهذه اللاءات الثلاث تفترض على المسيحيين العرب ان يبدأوا نزع ملامح التغريب التي التصقت ببعض مجتمعاتهم العربية، حتى تضيق مساحات الاختلاف الحضاري بينهم وبين المسلمين.

ولا ينتابنّ احداً ريبة في ان هذه الدعوة انما تروجّ لمجتمع اللون الواحد الخالي من الالوان المتنوعة. فالالوان التي تضيف تنوعاً الى الحضارات هي الالوان الاصيلة. أما محاولات تغريب قطاعات من المجتمع العربي، على نحو ما جرى منذ قرنين الى الآن، فلم تكن قطعاً تقصد إلى إغناء الحضارة العربية بالألوان المتعددة، بل هي انشأت مجتمعاً يجمع بين الهجنة والعقم. واذا كان يحق لنا ان نسأل: «ماذا يضيف الى الحضارة العالمية رجال يجافي بيئته ويلتحق بمتكلمي الفرنسية انطلاقاً من عقدة نقص»، فان من حقنا ان نجزم ان التعاطي مع الحضارات من موقع عدم الثقة بالنفس والسعي الى الالتحاق، هو الذي يضر بالحضارة ويجنح الى عالم اللون الواحد الخالي من الألوان المتعددة. أمضينا قرنين الى الآن، في محاولة تقليد الغرب تقليداً غبياً في نظمنا السياسية لأننا اعتقدنا ان الالتحاق يضمن لنا الترقي في مراتب الحضارة. فأين اصبحت محاولات الترقي هذه؟.

يقول برنارد لويس[٦] ان التجربة البرلمانية الاوروبية المنسوخة ادت الى الفشل التام. وان جميع النظم البرلمانية التي اصطنعها الغربيون في بلادنا على مثال دولهم، انتهت نهاية عنيفة «باستثناء ايران ولبنان»... والكلام طبعاً سابق لثورة ايران وللحرب اللبنانية. فأي استثناء بقي لدغدغة مخيلة الحالمين بالتغريب؟.

ويصف لويس هذه الحال ويقول على مصر ونظامها البرلماني المنسوخ عن مجلس العموم البريطاني[٧]: «والنتيجة كانت نظاماً سياسياً لا علاقة له بماضي البلاد او حاضرها، ولا يمت بأي صلة الى احتياجات مستقبلها... جرى استيراد برلمان القاهرة في صندوق، وجرى تجميعه واعداده للاستعمال، دون ان يكون مزوداً حتى بتعليمات لوسيلة استخدامه. لم يكن يسد أية حاجة أو مطالب لدى الشعب المصري، ولم يكن يحظى بمساندة أية مصالح نافذة، أو اي هيئة شعبية».

حيال هذا الفشل المطلق، لا بد من صرف النظر عن محاولات التغريب في كل مناحيها وعلى كل صعدها.

---

(٦) نفسه، ص ٥٦، والواقع ان في هذا الكتاب رصداً متبصراً لاثر التغريب والتغرب والعلاقات الجدلية التي نشأت من اقتحام الغربيين للشرق.

(٧) نفسه، ص ٥٩.

ان ما يسمى اليوم «قيادة المسيحيين»، وهي القيادة نفسها التي ظلت تشكل في الحقيقة عماد العصبية الحاكمة في لبنان منذ الاستقلال، الا محاولات قليلة ليس هذا مجال ذكرها، ورثت في واقع الحال ميراث الانتداب الفرنسي، وحملت همومه السياسية و«الحضارية» نفسها. وبدلاً من ان توقف عادات عمرها من عمر محاولات التغريب، وتبدأ مسيرة اعادة التعريب، تأميناً لحماية المسيحيين الحماية الحقيقية والدائمة، واصلت العمل بسياسة الانتداب في صعد مختلفة ليست الثقافة أقلها خطراً.

ولعل من المفيد في هذا الصدد، ملاحظة تطور اسئلة مادة الفلسفة التي طرحت في امتحانات البكالوريا قبل الاستقلال وبعده، لمعرفة نوع «الهموم الحضارية»، التي ورثناها عن الانتداب. ففي دورة تشرين الاول ١٩٣٤ كان السؤال: «هل من فلسفة عربية؟». وفي تشرين الأول ١٩٤١: «هل أضاف فلاسفة العرب شيئاً جديداً جديداً الى فلسفة الأقدمين حتى يمكن القول ان للعرب فلسفتهم كما لليونان فلسفتهم؟». وهذا قبل الاستقلال، اي ان الاسئلة وضعها فرنسيون. بعد الاستقلال، حين أصبحت البكالوريا تحت اشراف وزارة المعارف (وزارة التربية الآن)، ظلت روح الاسئلة على حالها، بل ازدادت وضوحاً. في تشرين الأول ١٩٤٤ كان السؤال: «قال ارنست رينان: ليست الفلسفة العربية سوى الفلسفة

اليونانية مكتوبة بأحرف عربية». وفي دورة حزيران ١٩٤٦: «قيل: لم تستقم للعرب فلسفة لانهم لم يوحدوا بين العناصر الاجنبيـة التي نقلوها، انما اكتفـوا بعـرضهـا متجـاورة لا متفاعلة». وفي تشرين الأول ١٩٤٨: «قال ارنست رينان: ليست الفلسفة العربية..» الى آخر السؤال[٨].

والمشكلة ان مثل هذا الاتجاه في احتقار التراث العربي، انما كان يروَّج لـه باسم العلم والتحضـير، حين ان الفلسفـة الاوروبية عاشت ثلاثة قرون على فلسفة ابن رشد وتطويره العظيم للفلسفة اليونانية، وحين ان كبـار العلماء وفلاسفـة التاريخ المنصفين يعرفون لابن خلدون قدره العظيم ودوره التأسيسي في فلسفة التاريخ، ويعتدّه ارنولد توينبي وجاك برك وايف لاكوست وجورج لابيكا وغيرهم، من ألمع مصابيـح الفكر في كل العصور. ولا حاجة الى التفصيل في هذا الأمر الآن، لان الدراسات تجـاوزت هذه المـرحلة الساذجـة من احتقار الاسهامات العربية في الفكر العالمي، وهو الاحتقار الذي روَّج له مستشرقون عنصريون في عصر انتشار الاستعمار الغربي المباشر، أمثال رينان وماسينيون وغيرهما[٩].

(٨) الـدكتـور مصـطفى خـالـدي والـدكتـور عمـر فـروخ: «التبشـير والاستعمار»، المكتبة العصرية - بيروت، صيدا، ١٩٧٣ - ص ٢١٨.

(٩) راجع في هذا الشأن كتاب الدكتور ادوارد سعيد «The Orientalism» وهو صـدر مترجماً الى العربية، عن دار «الابحاث العربية».

المشكلة ان «قادة المسيحيين» في لبنان، لم يتجاوزوا هذا السعي الحثيث الى تعميم احتقار التراث العربي العظيم، في كل مجال وصعيد، تحقيقاً لتميز «حضاري»، مرة من اللغة العامية، ومرة من اللغة الفرنسية، تارة باحتقار الفنون العربية، وطوراً بتشجيع الالتحاق الفني بالغرب... وهكذا. حتى في التاريخ، جرى التركيز تارة على إبراز التاريخ المعاصر، ابتداء من سنة ١٩٢٠، حين رسم سايكس وبيكو حدود التقسيم الأوروبي الحديث لبلادنا، وطوراً على الايغال في التاريخ القديم وحقبة الفينيقيين، والغاء كل الحقب الاخرى بينهما، محاولةً للهرب من أربعة عشر قرناً من العروبة الصريحة غير الملتبسة... تماماً مثلما جرى الهروب الجغرافي الى الداخل او الى الخارج، من المحيط العربي المباشر.

وحتى الآن، في العصر الذي يفترض انه عصر العلم، لا يزال اجتناب التَكنيّ بالعروبة سنَّة لا يخرج عليها أنصار الالتحاق بالغرب. فتراهم في أحسن الاحوال، يصفون انفسهم بأنهم «ناطقون بالعربية» على اعتبار ان الفينيقيين، او الآراميين ساميون وليسوا عرباً... مع ان العلم أخذ يقول الآن بأن الساميين جميعهم عرب[١٠] وبرغم ان الفينيقيين، انما

---

(١٠) الدكتور ادمون رباط: «الشرق المسيحي قبل الاسلام»، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت - ١٩٨٠ ص ١٣٠.

أقاموا امجادهم الحضارية جميعاً على ذهنية التعاطي مع بيئتهم الطبيعية، لا على رفضها واحتقارها والانسلاخ منها. فيقول الدكتور ادمون رباط[11] ان الفينيقيين كانوا يتاجرون في البحر المتوسط، بالسلع التي كان العرب يأتون بها إلى تخوم الصحراء الشامية. ولعل من الحقائق غير الشائعة ان سهل البقاع كان قبل المسيح بقرون طويلة جزءاً من مراتع البدو الرحل العرب الذين كانت تمتد ديارهم الى جنوب تركيا منذ الأزمنة الغابرة[12].

واذا كان السعي الى فك الارتباط العضوي بالعروبة، من خلال النظرية العرقية في تكوين الشعوب والقوميات فشل تماماً، فان النظرية البيئية أقل اسعافاً في هذا المضمار، لان عناصر البيئة، اللغة والاتصال الجغرافي والبشري والمصالح الاقتصادية المترابطة والمصير المشترك والماضي التاريخي والتطور السياسي والتأثر والتأثير، ترجح جميعاً كفة الانتماء الى العروبة ترجيحاً لا مرد له.

ولا يغرّنك ان كل محاولة للالتحاق بالغرب، في اللغة او

---

(١١) نفسه ص ١٢٨ وما بعدها.

(١٢) الدكتور جواد علي: «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام»، دار العلم للملايين ـ بيروت/ دار النهضة ـ بغداد، ١٩٧٦. المجلد ٢، ص ٦٢٠.

الفن او السياسة، تلقى تشجيعاً اوروبياً او غربياً، من صنف التشجيع المستتر او المكشوف. فمثل هذا التشجيع، لمثل هذا الالتحاق امر مضمون. ولكن الأمر غير المضمون هو مسارعة الغرب الى حماية أهل الالتحاق ونجدتهم عند الحاجة. ان رأي الغرب في مسار التغرب والالتحاق، هو معيار خدّاع، لانه يقيس مقدار خدمة هذا الالتحاق لمصالح الغرب، ويغض النظر عن مصالح الملتحقين. والمعيار الحقيقي لهذا الاتجاه نحو التغرب، هو أثره في علاقة الملتحقين، بشركائهم في العروبة. لان ميزان هذه العلاقة هو الذي يبين تماماً مقدار المخاطر التي تتعرض لها مصالح المسيحيين العرب الساعين الى الالتحاق بالغرب، وفقاً لما اتضح عبر تجارب تاريخية مؤلمة.

□ الدائرة الأصغر والأقوى

ان احكام الروابط والعلائق الحضارية والسياسية، بين المسلمين والمسيحيين في اطار العروبة، هو خير ضمان:

- لسيادة المسلمين والمسيحيين العرب على أوطانهم.
- ولتأمين مصير المسيحيين العرب ومستقبل اولادهم.

كان جمال عبد الناصر يقول ان حركة دولته، دولة العروبة المعادية لسيطرة الغرب، تدور ضمن ثلاث دوائر مطردة الاتساع:

الأولى هي الدائرة العربية، والثانية هي الدائرة الاسلامية، والثالثة هي دائرة العالم الثالث.

ومن الواضح ان عبد الناصر كان يقصد من هذا الى وضع أسس «عقود اجتماعية» للاغراض الدفاعية والاقتصادية، تماماً مثلما كان الدين الاول في المجتمع الزراعي البدائي. لكن الدائرة الأولى، دائرة العروبة، كانت توفر له العقد الاجتماعي الاشد قوة وتماسكاً، لانه قائم على المشاركة الحضارية الكاملة بين اطراف العقد (الا الطقوس الدينية في ما يتعلق بالمسيحيين العرب).

أما الدائرة الثانية فان المشاركة الحضارية فيها أقل اتساعاً، وعنصرها الاساسي المشاركة في الدين، وان كانت بعض الشعوب تمتلك في هذا الاطار عوامل مشاركة أخرى تلتقي فيها. وفي الدائرة الثالثة، دائرة العالم الثالث، يمكن القول ان أطراف «العقد الاجتماعي» فيها يشتركون في المشكلات التي يعانونها والخصم الذي يواجههم.

ولا حاجة الى القول، ان من يبحث عن تحالفات لعقود اجتماعية في هذا الاتساع، لا يمكن ان تفوته ضرورة قيام العقد الاجتماعي الاضيق، او الحفاظ عليه اذا كان قائماً. هذا العقد الاضيق، في مفهوم عبد الناصر، او الدائرة الصغرى كما كان يقول، هي العروبة. ولا شك في ان السلام

الاجتماعي والديني بين المسلمين والمسيحيين كان من أغراضه السياسية الأولى، لأنها ضمن السياق والمنطق تماماً.

هذه الصيغة هي الضمان لمستقبل المسيحيين العرب. فاذا عملوا من أجلها فسيجدون المسلمين أشد المتحمسين لها. أفلم يكونوا في أقصى حالات الحماسة الممكنة، في سنواتها الثماني عشرة؟.

ملاحق توثيق

وثيقة رقم ١

المسيحيون في الشرق قبل الاسلام

نظرة سريعة

د. إدمون ربّاط

يتصف المسيحيون الشرقيون بظاهرة خاصة بهم، لا يبدو أن لها مثيلا في سائر البلاد التي تعمها المسيحية، وهي في توزيعهم الى طوائف مختلفة، قائمة بذاتها، تستند كل منها الى تاريخ سحيق، فتتمتع بهيكلية كهنوتية، وتشريعات كنيسية، ومحاكم مذهبية أو روحية، خاصة بها، وهي منقسمة في الوقت الحاضر، فئتين واسعتين، فئة الطوائف الشرقية، المستقلة عن كل سلطة دينية خارجة عنها، وفئة الطوائف الموصوفة بالغربية، أي الكاثوليكية، من جراء خضوعها الى الكنيسة الرومانية وانتمائها الى عقيدتها وتعاليمها ـ مع ملاحظة أن هذه الطوائف الكاثوليكية كانت وليدة انشقاق قد أصاب طائفتها الأصلية، وهي الطائفة الشرقية الأم، باستثناء الطائفة المارونية، التي استطاعت المحافظة على وحدتها الكنيسية والاجتماعية، في اطار الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، بفضل انحصارها في اقليم جغرافي واحد في شمال جبال لبنان.

ومن المعلوم أن هذه الطوائف هي من رواسب الماضي البعيد، العائد الى ما قبل الاسلام، وانها نشأت وتكونت قبل الاسلام والفتح العربي، عندما كانت المسيحية تعم العالم القديم بأسره، أي أوروبا الوسطى والغربية، والامبراطورية البيزانطية، ما عدا المملكة الفارسية، التي كانت المسيحية قد تغلغلت فيها من جوانبها الغربية، في العراق والقسم الشرقي

الأكبر من بلاد بين النهرين، أي الجزيرة في لغة العرب.

فالمسيحية قد احتلت، بعد سنوات قليلة من صدور مرسوم الامبراطور قسطنطين الكبير، عام ٣١٣، مرتبة دين الدولة الرسمي في الامبراطورية الرومانية، وعندما تحولت هذه الامبراطورية، تدريجيا، الى امبراطورية إغريقية بلغتها وثقافتها، فغدت معروفة - فعلا لا رسميا، اذ أنها احتفظت بتسميتها الرومانية الرسمية، وهي التسمية التي تحرفت الى تسمية «الروم» في اللغات الشرقية - باتت معروفة بالامبراطورية البيزانطينية.

واليها كانت تمت بلاد الشام، أي سوريا وفلسطين ومصر، وافريقيا الشمالية واسبانيا الفزيغوتية، القائمة على سواحل البحر المتوسط، ومن بداهة القول أن شعوب هذه الاقطار كانت جميعها تدين بالمسيحية الرسمية، على مذهب الدولة، وكانت منتظمة في أربع بطريركيات كبرى، هي بطريركية انطاكية - وهي الأقدم عهدا - وبطريركية القسطنطينية، وبطريركية الاسكندرية، وبطريركية أورشليم القدس.

أما الجزيرة العربية فقد كانت راسخة في الوثنية، على الرغم من انسلال بعض الافكار والتقاليد المسيحية الى الحجاز، وبخاصة الى مكة، هذه التيارات الروحية، التي وصفها العرب منذئذ بالنصرانية، الماحا الى مدينة الناصرة التي

ينتمي اليها يسوع الناصري، وهي التسمية الواردة وحدها، كما هو معروف، بالقرآن الكريم.

على أنه اذا كانت النصرانية قد تعرقل سيرها في المناطق الحضرية، فان تعاليمها وطقوسها قد تمكنت من الانتشار في عدد من القبائل العربية، وذلك عبر بادية الشام والعراق، فكانت آثارها خصبة، لانها كانت بمثابة الخميرة التي أعدت العرب في الجزيرة إلى تقبل الاسلام.

ففي هذا البحر الزاخر من المسيحية ظهرت الطوائف المسيحية، التي ما زالت حية، ولو بأحجام أقل رقعة، إلى يومنا هذا.

وأمام هذا الواقع الديني الشامل، ينتصب السؤال عن الأسباب التي حوّلت المسيحيين في سوريا وفلسطين والعراق ومصر إلى طوائف مختلفة، بينما بقيت سائر شعوب الامبراطورية البيزانطية، في القسطنطينية والأناضول وافريقيا الشمالية وأوروبا، متمسكة بوحدتها ـ هذه الوحدة التي ستنفصم هي أيضاً، في القرن الحادي عشر بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، وللمرة الثانية، في القرن السادس عشر، بين الكثلكة والبروتسطنتية؟.

أول ما يتبادر الى الذاكرة للجواب عن هذا السؤال هو

القول بأن الاسباب - وليست العوامل، بمفهومها السيوسيولوجي - انما كمنت في المجادلات الصاخبة التي عمت العاصمة وبلاد الشام ووادي النيل، في القرنين الرابع والخامس، حول شخصية السيد المسيح وطبيعته، وهو جواب يبدو، في أول وهلة، وافيا بالمرام، ولكنه سرعان ما تظهر فيه بعض علامات الاستفهام، اذا ما حاولنا التعمق في العوامل العرقية والقومية أيضاً، التي لعبت دورا فعّالا في نشوب هذه الانقسامات التي أدّت، في النهاية، الى بروز الكيانات الطائفية.

وسنحاول قدر المستطاع القاء بعض الاضواء المستقاة من التاريخ، على هذه الجوانب الخاصة بالمسيحيين الذين باتوا، في اللغات الغربية، موصوفين «بمسيحيي الشرق» وذلك بالطبع بشكل مقتضب جدا، باعتبار أن الغاية من البحث الحاضر ترمي الى تلمس الجذور الاتنية التي تجعل من هؤلاء المسيحيين عربا، يتكلمون العربية ويساهمون بالشعور العربي، أسوة بمواطنيهم المسلمين في الاقطار العربية التي ما زالت تقوم فيها جماعات مسيحية.

أولا: الانقسامات اللاهوتية:

منذ زمن بعيد تميزت شعوب الشرق، ومنها أيضا الروم في القسطنطينية بشغفها الزائد للمساجلات اللاهوتية، وقد كانت

الفرصة سانحة ابتداء من القرن الـرابع، عنـدما بـدأ آباء الكنيسة والفلاسفة بالتمعن في شخصية السيد المسيح، وذلك بعد أن رفعته رسائل القديس بولس الى مرتبة ابن الله، الذي أوفده الأب بفعل الروح القدس، بشكل إنسان، مخلّصاً للبشر من الخطيئة.

وهذه الخصلة قصها غريغوريوس النيسي، أي من مدينة نيسا في آسيا الصغرى، وقد رفعته الكنيسة بعد وفاته الى مرتبة آباء الكنيسة، بشكل من الطرافة، لا تخلو من الانزعاج مما شاهده في العاصمة ذاتها من هذا القبيل، بقوله ما نصه:

«اذا ما سألت أحدهم كم هو ثمن هذه السلعة، فيجيبك بالمناقشة حول المولود وغير المولود واذا سألته عن ثمن الخبز أجابك: ان الاب أعلى والابن انما يأتي بالدرجة الثانية، واذا ما سألته عما اذا كان الحمام معدا، أجابك أن الابن انما هو مخلوق من العدم».

وكم كانت منتشرة الافكار الجديدة حول طبيعة المسيح، هذه الأفكار التي أدّت بالنتيجة الى الانقسامات، التي اتسم بها تاريخ المسيحية في الشرق.

ومن هذه «الهرتقات»، كما كانت تصفها الكنيسة الرسمية برزت ثلاث نظريات رئيسية، في غمرة من الهرتقات العديدة،

وقد لعبت دورا حاسما في الانشقاقات المسيحية، وهي الآرية، والنسطورية، والمنوفيسية، مع ما كان لهذه الاخيرة من صيغة فرعية تجلت بالمنوثلية، التي أراد صانعوها بابتكارها ايجاد حل وسط لتقريب المنوفيسية من مذهب الكنيسة الرسمية.

الآرية:

وهي البدعة التي ابتكرها الكاهن آريوس، في الاسكندرية، وكان من أصل ليبي، وذلك في القرن الرابع، وكان قد أعلن وحدانية الله، وان المسيح لم يكن سوى كلمة الله المخلوقة، فأوفده الله الى البشر رسولا ونبيا.

الا أن هذه الفكرة، التي كان من شأنها تقويض الايمان الاساسي بالثالوث الاقدس، الذي اعتنقته وعلّمته الكنيسة، دانها المجمع المسكوني، الذي انعقد في مدينة نيسيا، في شمالي غربي آسيا الصغرى، عام ٣٢٥، برئاسة الامبراطور قسطنطين شخصيا، فكان من نتيجة هذا المجمع إزالة هذه العقيدة من الشرق، إزالة تامة، وبخاصة تحديد الإيمان بالثالوث الأقدس تحديدا قاطعا نهائيا.

ومنذ ذلك الحين تحولت الآرية الى القبائل الجرمانية في أوروبا، الى أن توصلت الكنيسة الرومانية الى القضاء عليها، قضاء مبرما ـ لكي تظفر في النهاية في القرآن والإسلام.

النسطورية:

أما النسطورية فهي العقيدة التي تحمل اسم صاحبها، نسطور السوري الأصل، الذي شغل مدة سنوات، كرسي بطريركية القسطنطينية، وأخذ يعلن، وذلك بتأثير من الآرية على ما يبدو، أن المسيح، اذا ما كانت في شخصه قد اتحدت الطبيعتان، الآلهية والبشرية، فهذا الاتحاد لا يعني أن عذاب الصليب قد نال من الطبيعة الالهية، بل أن هذا العذاب قد اقتصر على الطبيعة البشرية وحسب، وهي عقيدة كان من شأنها أن تجعل من الايمان بأن الله قد بعث بابنه لتخليص البشر، ايمانا بدون أساس، طالما أن عذاب الصليب لم يشمل شخص المسيح بطبيعتيه المتحدتين، الامر الذي يجعل عندئذ السيدة مريم أم المسيح الانسان، وليس ام الله، كما يأتي اسمها بصلاة مريم.

واثر الاحتجاجات المدوية التي قامت من كل جانب على البطريرك نسطوريوس، ولا سيما من شعب القسطنطينية، الذي كان جدّ متعلقا بالقديسة مريم أم الله (Theotekos) قضى المجمع المسكوني الثالث، المنعقد في أفسوس، عام ٤٣١، بالهرتقة على هذا المذهب، وبخلع نسطوريوس عن كرسيه وارساله منفيا الى شمال الجزيرة العربية - لجهة البتراء التي كانت واقعة تحت سيادة الامبراطورية البيزانطية - حيث توفي منسيا.

الا أن اتباعه الكثر قد اضطروا من جهتهم الى الهجرة فلجأوا الى بلاد فارس، ولا سيما في بلاد بين النهرين، في نصّيبين والرها، حيث ازدهرت الكنيسة النسطورية ازدهارا عجيبا، لدرجة أنها تمكنت، خلال العصر الوسيط، من ارسال البعثات التبشيرية الى أقطار آسيا الوسطى، والى مملكة التتر أو المنغول، وحتى الى الصين، حيث تألفت على أساس مذهبها جاليات عديدة وضخمة.

المنوفيسية:

ولكن المذهب الذي لعب دورا حاسما في الانشقاقات الكنيسية، انما كان عقيدة الطبيعة الالهية الواحدة، الموصوفة بالمنوفيسية.

وأول من بشر بها كان ناسكا ورعا في القسطنطينية، اسمه اتويشيوس، وذلك في أوائل القرن الخامس، ولكن مؤسس هذه العقيدة انما كان في النهاية ساويروس الكبير، بطريرك انطاكيا في القرن السادس.

وهذه العقيدة كانت تقول بالطبيعة الإلهّية الواحدة بالمسيح دون الطبيعة البشرية، التي زالت من الوجود، بفعل تجسد ابن الله في هيئة انسان.

وقد انتشرت هذه العقيدة على الاخص في سوريا، ومصر،

وحتى أن أرمينيا ذاتها قد اعتنقتها، ولكن باضفاء تفسير خاص عليها.

وكان لا بدّ للكنيسة الرسمية من أن تثير حيال هذه العقيدة ردة فعل قاسية، فتجلت ردتها بادىء بدء، في المجمع المسكوني الذي انعقد في مدينة خلقيدونية، في شمال آسيا الصغرى، بقرب العاصمة، عام ٤٥١، حيث صدر القرار بدينها وتحريمها، واعلان عقيدة الكنيسة الرسمية، أي الكاثوليكية - الارثوذكسية، المبنية على الايمان، باتحاد الطبيعتين، الإلهية والبشرية، في شخص المسيح، اتحادا غير قابل للانفصام.

الكنائس المنوفيسية:

لقد كان مجمع خلقيدونية فاتحة الانشقاق العميق بين الكنيسة الرسمية والكنيسة السريانية في سوريا، والكنيسة القبطية في مصر، كما كان هذا المجمع منطلقا حافلا بالاضطهادات من جانب الدولة البيزانطية وكنيستها الرسمية، كما أنه قد أثار في سوريا ومصر موجة من السخط ضدهما.

المؤرخون، على اختلاف نزعاتهم، من شرقيين وغربيين، ومن كاثوليك وسريان، وصفوا الاشكال الفظيعة التي اتخذتها هذه الاضطهادات من مذابح جماعية، وتقتيل فردي بالسيف

والنار، ومن تشريد خارج المدن والاديرة، الى ما هنالك من أنواع التعذيب التي تقشعرّ لها الابدان، وكل ذلك باسم يسوع الناصري، رسول المحبة والرأفة، وهي حالة حدت كاتباً سورياً كبيراً، اميانوس مارسلانوس، على القول:

«لم ير التاريخ بهائم متوحشة أشد افتراسا وقساوة من المسيحيين، بعضهم لبعض».

وكان من أثر هذه الاعمال أن تأسست في بلاد الشام الكنيسة السريانية، وفي وادي النيل الكنيسة القبطية، وهو عمل جبار يعود الفضل بالمبادرة به وانجازه، الى كاهن سرياني، يعقوب البراذعي، أي في السريانية ذو الثياب الرثة والممزقة، التي كان يرتديها، للتخفي عن أعين الشرطة البيزانطية، التي كانت تلاحقه في كل مكان.

ولا غرو أنه كان من أثر هذه الاضطهادات، ليس فقط انشاء كنيسة وطنية في سوريا، وهي الكنيسة السريانية، وكنيسة وطنية في مصر، هي الكنيسة القبطية، وذلك بجانب الكنيسة الرومية، الرسمية، بل وعلى الاخص انبثاق شعور عميق من العداء والكراهية للسلطة البيزانطية، هذا الشعور الذي سيمهد الدروب للفتح العربي في القرن السابع.

وأمام هذه الانتفاضات التي ظهرت في الشام ومصر قبيل

الاسلام، تساءل المؤرخون الغربيون، امثال الروسي فاسيليف، والروماني نقولا يورغا، والفرنسي شارل ديل والفرنسي ارنست رينان، والانجليزي الفردبتلر، والنمساوي ارنست شتاين، وعدد كبير من سواهم، عما اذا كانت هذه الحالة النفسية التي هيمنت على أهل الشام ومصر ازاء الحكم البيزنطيني، بل هذه الانشقاقات التي قضت على وحدة المسيحية الشرقية في القرنين الخامس والسادس، عما اذا كانت وليدة الاختلافات في العقيدة حول شخصية المسيح فحسب، أم أن ثمة عوامل أخرى قد ساهمت في انطلاقها، وهو الوجه من تاريخ المسيحيين في الشرق، الذي وجد فيه المؤرخون الغربيون الذين ذكرنا، أن لتلك الانتفاضات أسبابا قومية، كانت سورية في سوريا وقبطية في مصر، وانها ارتدت وقتئذ شكل الحركات الدينية، لان الدين انما كان الرداء الذي كانت تتجلى به في ذلك العهد، كما سيجري بعدئذ في الاسلام، الحركات السياسية والاجتماعية.

وهي نظرة الى حقيقة تلك الحركات، يقتضي توضيحها بالعودة الى الجذور العرقية التي تمتّ اليها شعوب هذه المنطقة، الموصوفة اليوم بالشرق الأوسط.

ثانياً: الاصول السامية:

مما لا شك فيه أن معظم الشعوب القاطنة في الوقت

الحاضر الاقطار التي يتألف منها الهلال الخصيب، وهو التعبير الـذي أوجـده، في أوائـل هـذا القـرن، المؤرخ الاثـري الاميركي، جيمس بريستد (James Breasted) بوصفه الاقطار المحيطة بالجزيرة العربية بالـ Fertile Crescent، انما هي محض سامية في أصولها.

والساميون الذين ورد ذكـر جـدهم الاعلى، سـام بن نوح، في التوراة، انما يؤلفون مجموعة واسعة من الاقوام التي تربطها صلة النسب من جهة، وعلاقة التربة من جهة أخرى، وهذه الاقوام، التي ظهرت منذ فجر التاريخ بشكل قبائل وعشائر، هي التي استوطنت بلاد الشـام والعراق ـ ولـربما أيضا، وعلى حد قول بعض العلماء، مصر ونوبيا والحبشة.

والاشكال الذي أثار الاهتمام منذ أوائل القرن الماضي كان في التحري عن المحيط، الذي كـانت تنطلق منـه الاقوام السامية.

وللجواب عن هذا السؤال، توصل الالماني ادولف شبرنغر (A. Sprenger) في أواسط القرن التـاسع عشـر، اثر دراسـات وتحريات معمقة، الى القول الجـازم «ان السامـيـن جميعهم عرب»، لانهم قد نبتوا من الجزيـرة العربيـة، فتبعه بهـذا الرأي، استنادا الى أدلة جديدة، عالمان المانيان آخران، شرادر (Schrader) وفنكلر (Winkler)، ولهذا الاخير عبارة معروفة، وهي

«أن منبت الساميين الأصلي انما هو الجزيرة العربية».

وهذا الرأي قد تحوّل الى نظرية علمية بفضل العلاّمة الايطالي ليوني كايتاني (Leone Caetani) ، صاحب «حوليات الاسلام» الضخمة (Annali) ففي هذا المؤلف، وبخاصة في مؤلف آخر بعنوان «دراسات في التاريخ الشرقي» (Studi di Storia Orientale) ، قد توصل الى الدلالة على ان القبائل كانت تنفر، تباعا، خلال الازمنة الغابرة ومنذ أكثر من خمسة آلاف سنة قبل المسيح، من الجزيرة العربية منذ زمن بعيد جدا بسبب تحوّلها الى صحارى رملية وبوادٍ عارية من النبات، وتزايد الاعداد البشرية في القبائل، تزايدا مستمرا، الامر الذي كان يدفعها الى اجتياز حدود الجزيرة، لكي تنصبّ على الاقطار المجاورة، فتغمرها كمياه الانهار الصاخبة، وتحتل أراضيها، وتشيد فيها الممالك والامبراطوريات، التي كانت جميعها سامية في أصولها العرقية، باستثناء قبائل سومر (Sumer) ، التي ما زال العلماء مختلفين حول تعيين أوطانها الاصلية.

وهكذا كاد اليوم الاجماع أن يتم بينهم على أن الساميين قد وردوا، تباعا، خلال الازمنة الغابرة، من الجزيرة العربية، وان كانت آراؤهم ما برحت متضاربة حول الاسباب التي كانت تدفعهم، دوريا، الى اجتياز شواطىء الجزيرة والفيض

على أقطار الهلال الخصيب.

وهذه النتيجة لتحريات وأبحاث طويلة، فقد لخصها المؤرخ الفرنسي الكساندر موره (Alexandre Moret)، بخمس من الامواج السامية الآتية جميعها من الجزيرة العربية، على الوجه التالي:

- بلاد عقاد أو أكاد (Accad)، في جنوبي العراق، وهي متاخمة لحدود الجزيرة العربية في الالف الرابع قبل المسيح.

- الكنعانيون، وهم فئتان، فئة كنعانيي سواحل بلاد الشام، الذين اسماهم الاغريق بالفينيقيين، مع العلم أن مدنهم الدولية (بفتح الدال) بمعنى الدولة - المدينية، كانت تتسمى بالكنعانيين.

وفئة كنعانيي الداخل، الذين امتد انتشارهم الى فلسطين وبعض أقسام من سوريا الوسطى، وذلك حوالي عام ٢٩٠٠، أي في أواخر الألف الثالث.

- الاراميون في سوريا من شمالها حتى دمشق، والعبريون في فلسطين، قريب عام ١٥٠٠، أي في أواسط الالف الثاني.

- الانباط بجوار عام ٥٠٠، وذلك كله بالطبع قبل الميلاد.

- وفي القرن السابع، بعد الميلاد، اندفعت الموجة الاخيرة،

التي أتت بالعرب، تحت راية الاسلام.

وهي موجات قد توقفت ظاهرا، منذ الفتح العربي، بشكلها العنفي، لكي تتحول الى حركات تسللية، كانت تغذى بصورة متواصلة، سكان سورا الساميين، بدم قبائلها، فكان منها من يبقى على حياة البادية والرّحل، وسواها على الحياة الحضرية في أنحاء سوريا كافة، كما أثبت ذلك المؤرخ الفرنسي رينه دوسو René Dussaud، في كتابين معروفين.

وهذا مع الاشارة الى أن الجغرافي الاغريقي، سترابون Strabon، قد أشار في مؤلفه المسمى «بالجغرافيا»، ان جبل لبنان كانت تقطنه، في القرن الاول من الميلاد، قبائل وعشائر عربية وايتورية (علما بأن الايتوريين هم أيضا من العرب)، وان هذه الاقوام كانت تعيش من الغزو وسائر وسائل الحياة البدوية.

في ضوء هذه المعطيات التاريخية، قد نستطيع اجراء المحاولة للتحري، على وجه التقريب، عن الاصول العرقية لاهالي بلاد الشام، قبيل الفتح العربي في القرن السابع - مع الملاحظة أنه من العسير تطبيق ذات الطريقة على أقباط مصر، الذين نبقيهم خارج بحثنا الحاضر، لاسباب عدة ومنها على الاخص لان للشعب القبطي المصري، الذي تحوّل الى الاسلام فيما بعد، لكي لا يبقى منه في الوقت الحاضر سوى

ستة أو سبعة ملايين فقط، جذورا عرقية ممتزجة بالسامية والحامية السوداء، التي لمّا يتوصل العلم الى توضيحها.

ثالثا: المسيحيون في سوريا والعراق:

نحصر البحث بسكان سوريا والعراق، علما بأن سوريا التاريخية انما تشمل أيضا فلسطين، وبالطبع لبنان - تاركين خارج هذا الاطار الاقباط في مصر، الذين كان يتألف من كثرتهم الساحقة شعب مصر قبل الاسلام.

فمن المسلّم به اذن ان الجماعات التي كانت قاطنة في سوريا والعراق، قبل الفتح العربي، كانت مسيحية برمتها، كما أنه من المتفق عليه بين المؤرخين أن هذه الجماعات كانت منتمية الى المنوفيسية في سوريا، والى النسطورية في العراق، وذلك بجانب جماعات كان لها أيضا قيمتها العددية، مؤلفة من الروم، الخاضعين للكنيسة الرسمية في سوريا ومن المنوفيسيين اتباع كنيسة انطاكيا اليعقوبية، في العراق، وكان بعضهم في سوريا من أصل اغريقي والبعض الآخر من الآراميين، بينما كانوا في العراق، بمعظمهم على الأقل، من الآراميين ومن غير الفرس الايرانيين.

الا ان في شمال سوريا، وبالتخصيص في مدينة خوروس، الواقعة قرب مدينة عزار، وكذلك حول دير كان كائنا على

العاصي قرب مدينة أفاميا، وهو المكان المعروف اليوم بقلعة المضيق، تكونت جماعة الموارنـة، الذين تسمـوا باسم مـار مارون، منشىء هذه الجماعة، وقد عاش ناسكا في القرن الرابع.

وحول العقيدة التي انبثقت عنها هذه الجماعة، التي هي آرامية في أصول اتباعها، تضاربت الاراء. فهنالك شبه اجماع لدى المؤرخين والمبشرين الغربيين، على أن هذه الجماعة قد نشأت بوحي وعلى أساس المنوثيلية، القـائلة بأن للمسيـح مشيئة واحدة في طبيعته الالهية والبشرية، في حين أن المؤرخين والاحبار والكهنة من الموارنة انما ينكرون بشدة ما يعتدّونه وصمة في «ارثوذكسيتهم الدائمة» Perpétuelle Orthodoxie .

ومهما كان من الامر فالواقع هو أن هذه الجماعة كانت في وطنها الاصلي وليدة تربته مما يعني أنها كانت، ولم تزل، آرامية بعرقيتها، واذا ما انتقلت، ابتداء من القرن التاسـع، على أغلب الظن، الى أعالي جبال لبنان الشمالية، فـانما بقيت محافظة على وحدتها، وبالطبع، على أصولها، مما يـدعو الى القول بأنها، هي أيضا، سامية الاصل، وعربية المنشأ.

الا أن في الواقع كانت تلك الجماعات في سوريا والعراق خليطا من الآراميين والعرب، فكان العنصر الارامي سائدا في المـدن السـاحليـة والـداخليـة، وعـلى الاخص في القـرى

والارياف، بينما كان العرب، وهم كانوا ـ وما زالوا منضوين في اطاراتهم القبائليـة والعشائـرية، متـوطنين، منـذ الازمنة البعيدة، باعداد كثيفة، في المناطق الشرقية من سوريا والمناطق الغربية والشمالية من العراق.

وهكذا نشأت وازدهرت في تلك البوادي امارة الغساسنة في سوريا، وكانوا يعتنقون المذهب اليعقوبي، ومملكة اللخميين في الحيرة من أعمال العراق، التي كان ملوكهـا ورعايـاها من النسطوريين، ـ مع الملاحظة ان دولاً عربية قد نشأت أيضاً في تلك الاصقاع، قبل القرنين الخامس والسادس، اشتهرت منها جمهورية البطراء في الاردن، ومملكة تدمر (بالميرا) في سوريا.

هذا وقد كانت الآرامية اللغة المهيمنة في ذلك العهد، وقد بقيت الآرامية متنشرة، مدة ستة قرون على الاقل، لدرجة أنها غدت اللغة الدولية، وأيضاً الرسمية حتى في المملكة الفارسية ـ وكانت هي اللغة الدارجة في فلسطين، بدلاً من العبرية التي اندثرت كلغة محكية ومكتوبة، فانزوت في طقوس العبادة لدى اليهود ـ ومن المعروف عن المسيح أنه بشّر بـالآرامية وليس بالعبرية، وان آخر كلماته عـلى الصليب انما لفـظها بالآرامية.

غير أنه بجانب الآرامية كانت العربية اللغة الدارجة في

بوادي الشام والعراق، وأيضاً في المدن والقرى المتاخمة، وعلى الاخص في حمص وقنسرين وفي وادي الاردن وفي الشام، وفي الانبار والمدائن والموصل والرها ونصيبين الخ في العراق والجزيرة، وذلك كله بجانب اللغة الاغريقية، لغة الدولة والدواوين في سوريا، والفارسية لغة الساسانيين في العراق.

ومن المعلوم أن اللغة انما تؤلف أحد المؤشرات الدالة على الاصول العرقية، بل هي المؤشر الاكبر في الجماعات الدولية، لدرجة أنه بفضل اللغة القديمة جداً في الهند، والمعروفة بالسانسكريتية، قد توصل العلماء إلى كشف الغطاء المجهول الذي كان يحجب أصول الشعوب الأرية الموصوفة أيضاً بالهندو ـ أوروبية، أو الهندو ـ الآرية.

فإذا كانت الآرامية الممتزجة بالعربية اللغة العامية والادبية في الوقت ذاته، في جماعات سوريا والعراق المسيحية، فلان هذه الجماعات انما كانت منحدرة من أصل سامي، وان أصولها القريبة والبعيدة كانت متصلة بالجزيرة العربية، وذلك أثر الموجات البشرية الكثيفة التي ما فتئت، مدة أربعة أو خمسة آلاف سنة، تجتاح أقطار الهلال الخصيب.

رابعاً: القابلية النفسية للفتوحات العربية:

وكان من الطبيعة الإنسانية أن تولد تلك الانقسامات

اللاهوتية، والاضطهادات الدينية، نفوراً وكراهية وعداء في سوريا ومصر، حيال الاغريق في بيزانطيا، كما كانت عليه الحالة النفسية في العراق تجاه الساسانيين الفرس، الذين لم يمتنعوا هم أيضاً عن اللجوء إلى العنف وسفك الدماء لاخضاع المسيحيين، من نساطرة ويعقوبيين، إلى سياستهم المجوسية.

وكان لا بد للاصول السامية من أن تهيء النفوس لهذا النفور نحو المملكتين العظميين في ذلك الحين، وهي التي دفعت سكان سوريا والعراق على الاخص، إلى أن يتوسموا الخير وينشدوا الخلاص على يد الفاتحين العرب، ليس فقط من محنتهم الدينية، بل أيضاً من ظلم الضرائب وكثرتها التي كانت تثقل كاهل المكلفين، في أقطار الهلال الخصيب ووادي النيل.

وهذه المعطيات أجمع المؤرخون على أنها ساهمت كثيراً بتسهيل سبل النصر للفتوحات العربية، لدرجة أنهم جزموا بأن سكان هذه الاقطار قد تقبلوا العرب بقلوب رحبة، لانهم رأوا فيهم محررين لا غزاة.

وحسبنا الاستشهاد ببعض الاقوال من هذا القبيل، كميخائيل السرياني، بطريرك السريان الارثوذكس في القرن الثاني عشر، أي بعد خمسة قرون من الفتح، وفي تاريخه

الطويل نجد عبارات استهجان لسياسة الروم، كالتالية:

لان الله هو المنتقم الاعظم، الذي وحده على كل شيء قدير، والذي وحده انما يبدّل ملك البشر كما يشاء، فيهبه لمن يشاء، ويرفع الوضيع بدلاً من المتكبر، ولان الله قد رأى ما كان يقترفه الروم من أعمال الشر، من نهب كنائسنا ودياراتنا، وتعذيبنا بدون أية رحمة، فإنما قد أتى من مناطق الجنوب ببني اسماعيل، لتحريرنا من نير الروم... وهكذا كان خلاصنا على أيديهم من ظلم الروم وشرورهم وحقدهم واضطهاداتهم وفظاعاتهم نحونا».

وهي شهادة رهيبة، نجد مثلها، بما يتعلق بأقباط مصر، في تاريخ يوحنا النيقوسي Jean de Nikiou ، الذي تولى أسقفية نيقو في دلتا النيل، بعد فتح مصر بقليل، وكذلك في تاريخ سواروس الاشموني، الذي جاء من بعده، وهي شهادة لا شك بأنها تدل على ما كان عليه مسيحيو مصر وسوريا والعراق من الشعور نحو البيزانطينيين والفرس من جهة، وحيال العرب المسلمين من جهة ثانية.

ولانهم قد تحققوا من هذا الوضع النفساني، الذي كان عاملاً حاسمًا في انجازات الفتح العربي، بسرعة مذهلة، فقد توافق المؤرخون الغربيون في عصرنا على اعلان هذه الحقيقة، أمثال الهولاندي دي غوج، والبريطاني الفرد بتلر، والفرنسي

ارنست رينان وعدد كبير من سواهم.

ونكتفي في هذا المضمار بايراد مقطع من دي غوج، في بحثه العميق حول فتح سوريا، الصادر في أوائل القرن الحالي، وفي معرض تذكيره بالتبعة التي يتحملها الامبراطور هراقليوس، أو هرقل، في ضياع سوريا، بسبب سياسته الخرقاء، بفرض تعاليم المجمع الخلقيدوني والمنوثلية، بوسائل شتى من الاضطهاد، وذلك مع اشارته إلى ازدياد الضرائب التي اثقلت كاهل سكان سوريا، مما حدا هؤلاء السوريين على اليقين بأن سلطان العرب سيكون أكثر رحمة وأشد حرية لمعتقداتهم. يقول هذا المستشرق الهولاندي أن العرب والسوريين معاً كانوا يرون في بلاد الشام، جزءاً لا يتجزأ، مكملاً من الجزيرة العربية، وذلك بقوله ما نصه:

«منذ أبعد الازمنة كانت سوريا موطناً للعرق السامي، وعلى الرغم من أن الحكومة كانت، في عهد بيزانطيا، متمركزة في القسطنطينية، فإن الشعب كان بمعظمه سامياً وحتى عربياً، ولذلك لم يكن من أثر الفتح العربي الاستيلاء على قطر غريب، الغاية المباشرة منه جباية الضرائب من سكانه، وانما تحرير جزء من الوطن العربي الذي كان رازحاً تحت طغيان الاحتلال الاجنبي، وبالتالي استعادة عدد عظيم من المواطنين المهيئين نفسياً لاشراكهم بالدفاع عن مجد الله ونبيه».

ولا غرو أن السياسة التي اتبعها العرب المسلمون منذ أول فتوحاتهم قد أعدت تلك الجماهير في البلاد التي دانت لهم، إلى تقبل سلطاتهم، وهي سياسة كانت، هي أيضاً، فتحاً بذاتها، في عالم الفكر والدين. ومن المعلوم أنها استندت إلى آيتين كريمتين، الواحدة التي تقضي أن «لا اكراه في الدين»، والثانية أن على أهل الكتاب، الذين يختارون البقاء على دينهم أن «يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون».

فمن الممكن وبدون مبالغة القول بأن الفكرة التي أدت إلى انتجاع هذه السياسة الانسانية، «الليبرالية»، إذا جاز استعمال هذا الاصطلاح العصري، انما كانت ابتكارا عبقرياً، وذلك لان للمرة الاولى في التاريخ انطلقت دولة، هي دينية في مبدئها، ودينية في سبب وجودها، ودينية في هدفها، الا وهو نشر الاسلام، من طريق الجهاد، بأشكاله المختلفة، من عسكرية ومثلية وتبشيرية، إلى الإقرار في الوقت ذاته بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانهم، أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطراز حياتها ـ وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد إكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم، بل وحتى على الانتماء إلى الشكل الخاص الذي يرتديه هذا الدين، كما كان الامر عليه في المملكتين العظميين اللتين كان يتألف منهما العالم القديم ـ وهو المبدأ بل القاعدة السياسية، المعروفة بصيغتها

اللاتينية ejus regio cujus religio

هذه القاعدة التي لم تندثر في البلاد الغربية إلا بفضل لثورة الأميركية والثورة الفرنسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

وكان لا بد إذن لهذه السياسة الإسلامية، المتحدرة عن القرآن، من أن تسفر عن نتيجتين حاسمتين ما لبثت آثارهما ماثلة في الشعوب العربية، وهما قيام الطوائف المسيحية على أساس النظام الطائفي من نحو، ودخول سكان الأقطار التي فتحها العرب في دين الإسلام من نحو آخر.

فتلك الجماهير الكثيفة، التي تشكل كثرة أهالي سوريا ومصر والعراق، إنما كانت تدين بالمسيحية، وقد اعتنقت الإسلام بأفواج متلاحقة، منذ القرن الأول من الهجرة، بملء حريتها، في حين أن من بقي من هؤلاء النصارى، موزعين إلى طوائفهم المعروفة بتسمياتها المختلفة إنما هم شهود عدل، عبر التاريخ، ليس على سماحة الإسلام - وهو تعبير لا يفي بالواقع، لأن وجودهم كأهل ذمة في الماضي، إنما كان مبنياً على قاعدة شرعية وليس على شعور، من طبيعته أن يتضاعف أو أن يضعف - وإنما على إنسانية هذا الدين العربي الذي أنزله القرآن.

وهو الدين الذي أقر لغير المسلمين، ليس فقط بحقوقهم الفردية والجماعية الكاملة، بل وأيضاً بالمواطنية الشاملة في عصرنا الحاضر، الذي زال فيه نظام الذمة، لكي يحل محله نظام الحريات العامة، المنطوية، لزاماً، على مبدأ المساواة التامة في المواطنية.

ألم يكن الرسول العربي الذي قال في حديثه الشهير:

«ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي».

بيروت في ٤/ ٣/ ١٩٨١

الدكتور ادمون رباط

وثيقة رقم ٢

«من تاريخ سورية الدنيوي والديني»
للمطران يوسف الدبس
أسقف بيروت الماروني (أوائل القرن العشرين)
جـ ٥: ص ص ١٠٤ إلى ١٠٩

غدر الدولة البيزنطية بالموارنة

ذكرنا في تاريخ الموارنة في القرنين الخامس والسادس القديس مارون وتلامذته وتكاثر رهبانهم واديارهم وتوافر الجمهور المنتمي اليهم والمسمى باسمهم. ونذكر في هذا العدد طورهم الدنيوي في هذا القرن وذلك درس نلقيه إلى ابناء ملتنا وجميع مواطنينا نحذرهم به من التهور في مهواة المناواة للسلطة السائدة فيهم بوسوسة أصحاب الاغراض البعيدين عنهم، فمن المعلوم ان الخلفاء الراشدين صرفوا اهتمامهم عند اخذهم سورية وطردهم ملوك الروم منها إلى فتح مدنها ولم يكترثوا لسكان جبالها لقلة اهميتها وعدم المنفعة منها ولتعسر مسالكها وان ملوك الروم ما انقطعت مطامعهم في استردادها وظلوا يوسوسون لسكانها ليلبكوا امرها ولا تستقيم حالها ليتيسر لهم العود اليها، كما حاولوا مرات فلم يظفروا. فمن ذلك انهم وسوسوا للموارنة وكانت مساكنهم حينئذٍ في الجبال

من جبال الجليل إلى جبال انطاكية فلبكوا حكومتهم وتوافرت غزواتهم في السهول حتى اضطروا بعض الخلفاء ان يعقد صلحاً مع ملوك الروم على شرائط سيأتي ذكرها ومنها ان يكبتوا الموارنة الذين تلقبوا عندئذٍ مردة ويصدوهم عن غزواتهم. وكانت النتيجة حينئذٍ ان هؤلاء الملوك البيزنطيين انفسهم الذين وسوسوا للموارنة وهيجوهم على مخالفة رضى حكومتهم انقلبوا على المردة وأذاقوهم الامرّين ومكروا بهم فسبوا اثني عشر الفاً من نخبة شبانهم وابعدوهم عن أوطانهم وجيشوا عليهم واخربوا أكثر بلادهم وحرقوا اديارهم وعمدوا إلى القبض على بطريركهم واتصلوا إلى طرابلس على مقربة منه ولو لم يتدارك الله أمرهم بالنصر على الجيش البيزنطي لأبادوهم عن آخرهم. فهذه هي الامثولة التي نريد ان يتمثل بها ابناء ملتنا ومواطنونا ليخلصوا في الطاعة للحكومة السائدة عليهم. واليك تفصيل هذه الاحداث:

قد روى كثيرون من علماء امتنا أنه كان للموارنة في القرن السابع سطوة وصولة حتى ضبطوا كل ما كان من انطاكية إلى اطراف الجليل. على اننا نوثر ان نروي اخبار هذه الأحداث عن كتب المؤرخين القدماء التي أخذ علماؤنا عنها هذه الأخبار لأنها أبعد مجالاً عن مظنة الغرض والغلو والتعصب لأمتهم. قال توافان المؤرخ الشهير (في تاريخ السنة التاسعة

للملك قسطنطين اللحياني) «في هذه السنة خرج المردة من لبنان فضبطوا كل ما كان من الجبل الاسود (المعروف اليوم بالجبل الاقرع فوق السويدية) إلى المدينة المقدسة (أورشليم) واستحوذوا على قمم لبنان وانضم اليهم كثيرون من العبيد والاسرى والوطنيين حتى اصبح عددهم في مدة وجيزة الوفاً كثيرة. وسمع معاوية واصحاب مشورته بذلك فخشوا جداً من عاقبته حتى فكروا بأن الله محامٍ عن مملكة الرومانيين. وارسلوا وفداً إلى قسطنطين الملك يطلبـون الصلح ويعدون بوفاء جزية كل سنة. فتقبل الملك وفدهم بالاعزاز والتكريم واجابهم إلى سؤالهم واوفد معهم إلى سورية البطريق يوحنا المسمى بتسيكود وكان من رجال الندوة في حكومته ومتصفاً بالخبرة والحكمة وحسـن التعاطي والمداولة مع العرب ليتفق معهم على شرائط الصلح. ولما بلغ سوريـة قابله معـاوية بالترحاب وعقد ديوان مشورته. وبعد المداولة بشروط الصلح قرّ رأيهم على كتابه عهدته موثقة باليمين على ان يدفع العرب كل سنة إلى الرومانيين ثلاثة الآف ذهب وثمانية الآف اسير وخمسين جواداً من الخيل الجياد وابرم الصلح بين الرومانيين والعرب على هذه الشروط إلى ثلاثين سنة ودونت العهدة ووقع على نسختين منها لكل فريق نسخة وعاد ذاك الرجل الشـهير البطريق يوحنا المتواتر ذكره إلى الملك بهدايا نفيسة جداً».
وقال توافان أيضاً في تـاريخ السنـة الاولى لعبد الملك بن

مروان: «في هذه السنة حدثت مجاعة شديدة وطاعون في سورية وولى عبد الملك في امته وتواترت غارات المردة في جوار لبنان وثقلت وطأة الطاعون. فطلب عبد الملك تجديد عهدة الصلح التي كانت قد ابرمت في أيام معاوية. وارسل وفوداً إلى الملك واعداً ان يدفع كل سنة ثلث مئة وخمسة وستّين ديناراً وكذلك من العبيد وليس باقل من ذلك من الخيل الجياد» وقال في تاريخ السنة الاولى ليوستنيانس الملك: «في هذه السنة ارسل عبد الملك رسلاً إلى الملك لإبرام عهدة الصلح فعقد الصلح على الشروط الآتية وهي أن الملك يمنع غارات عسكر المردة من لبنان ويصد غزواتهم. وعبد الملك يدفع اليه في كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً وان الملكين يقتسمان بينهما خراج قبرص وارمينيا وايباريا قسمة عادلة سويّة. وارسل الملك بولس ماجيستريانس إلى عبد الملك لإبرام عهدة الصلح فكتب صكها ووقع عليه امام الشهود وعاد ماجيستريانس مكرماً إلى الملك. وابرز الملك امراً بابعاد اثني عشر ألفاً من المردة عن اوطانهم، وقد اضعف بذلك قوة المملكة الرومانية لان جميع المدن المجاورة لبنان من المصيصة إلى ارمينيا الرابعة كانت ضعيفة وكانت خالية من السكان بسبب غارات المردة الذي كبتهم الملك. وقد توالت من ذلك اليوم إلى الآن المحن والمصائب في المملكة الرومانية بسبب سطو العَرَب». وقال في تاريخ السنة الثانية ليوستنيانس «إن

الملك مضى في هذه السنة إلى ارمينيا فقابل هناك عسكر المردة الذي كان قبلاً في لبنان بمنزلة سور نحاسي لمملكته فدكه بيده». وقال في تاريخ السنة الخامسة للملك المذكور «في هذه السنة نقض الملك يوستنيانس لطيشه عهدة الصلح المبرمة مع عبد الملك». وذكر ما رويناه في الكلام على عبد الملك من أمره بنقل سكان قبرس وتعنته في قبول الدنانير الحديثة التي صكها عبد الملك إلى ان قال ما ملخصه «ولما بلغ ذلك عبد الملك ارسل يسأل يوستنيانس ان لا ينقض العهدة المبرمة بينهما فظن يوستنيانس ان عبد الملك يخاف سطوته ولم ينتبه إلى ان العرب يتطلبون بعد كبت المردة علة لنقض عهدة الصلح. فكتب يوستنيانس اليهم انه لا يريد العمل بالشروط المتفق عليها فأجابوه هم انهم متشبثون بها وانه اذا نقضها وارغمهم على الحرب فيكون هو علة لنقضها. والتقى جيش الملك وجيش العرب في الكبدوك فارسلوا يسألونه ان لا يخالف العهد الوثيق الإبرام بينهما باليمين والا فينتقم الله من المخالف. فأعارهم أذناً صماء واقتحم جيشهم فعلقوا الصحيفة المكتوبة عليها عدة الصلح على رمح بمنزلة راية لهم فدارت الدوائر على يوستنيانس وجيشه» كما رأيت قبلاً فهذا ما ترجمناه بما امكن من الدقة عن تاريخ توافان.

واليك ما قاله شدرانس في موجز تاريخه «في السنتين الثامنة

والتاسعة (لقسطنطين اللحياني) دخل المردة لبنان فاستحوذوا على كل ما كان من الجبل الاسود (الجبل الاقرع) إلى المدينة المقدسة وضبطوا أعالي لبنان وتألب اليهم كثيرون من العبيد والاسرى والوطنيين حتى اصبحوا في مدة وجيزة الوفاً كثيرة. فوجس منهم معاوية ومن معه وفكروا بأن الله يحامي بعونه مملكة الرومانيين فارسلوا رسلاً إلى قسطنطين الملك يطلبون الصلح فارسل الملك بيساكود إلى السراكسة واتفق معهم على الصلح ودونوا صكه في صفائح على شريطة ان يدفع السراكسة كل سنة إلى الرومانيين عشرة الآف ذهب (وفي كتاب زوناراس ثلثة آلاف) ومائة عبد وخمسين جوداً اصيلاً. ولما علم ذلك سكان المغرب طلبوا هم ايضاً الصلح. وقال في تاريخ السنة الاولى ليوستنيانس «في السنة الاولى لملكه ارسل اليه عبد الملك رسلاً لاثبات الصلح. واتفقنا على ان الملك يحصر عسكر المردة في لبنان ويمنعهم عن الغارات ويدفع العرب إلى الرومانيين في مقابلة ذلك في كل يوم ألف دينار وجواداً وعبداً، فأرسل الملك بولس ماجستريانس إلى عبد الملك لإبرام العهد فوقع على العهدة امام الشهود وارسل الملك قائداً فابعد اثني عشر الفاً من المردة فاضرّ ذلك بمصلحة المملكة الرومانية. فكل ما يستحوذ عليه العرب الآن من المصيصة إلى ارمينيا الرابعة كان واهناً لا قوة فيه وخالياً من السكان بسبب غزوات المردة فكبتهم انزل بالمملكة الرومانية

مضارّ كبيرة إلى اليوم. فيوستنيانس لم يكن حينئذٍ اكمل السادسة عشرة من عمره فتصرفه كان على غير هُدَى وقال في تاريخ السنة السادسة ليوستنيانس «في هذه السنة نقض يوستنيانس بحماقة عهدة الصلح مع عبد الملك لانه اراد ان يأخذ جالية من قبرس لغير داعٍ. وانف من ان ياخذ من عبد الملك الدنانير التي صكها حديثاً، ولاعتماده على عسكر اختاره من الصقالبة (من اسكلافونيا) نقض المعاهدة المذكورة وزحف بهذا العسكر بكتائب من الفرسان إلى آسيا الصغرى وأكره العرب بطيشه على نقض المعاهدة. ولما التقى الجيشان اقام العرب الحجة عليه ودعوا إلى الله ان ينتقم ممن نقض العهد. فلم يقف الملك بل سارع إلى تسعير نار الحرب. فعلق العرب صفيحة المعاهدة على علمهم ووثبوا على الجيش الروماني وكان قائدهم يسمى محمداً فتقهقر العرب اولاً ثم تغلبوا على الجنود الرومانيين وقتلوا كثيرين منهم. وقرض الملك من بقي من الصقالبة مع اطفالهم ونسائهم».

وقال زوناراس (في ك ١٤ من تاريخه في كلامه على يوستنيانس): «قد استوى يوستنيانس على منصة الملك وعمره ست عشرة سنة. وكان يدبر جميع مهام المملكة على هواه. فأوقع المملكه في مهالك كثيرة منها ان شعباً يلقب بالمردة كان قد استحوذ على مشارف جبل لبنان في ايام قسطنطين

اللحياني. وكان العرب يخشون صولتهم حتى حملوهم على طلب الصلح من ملوك الرومانيين كما مرّ. (كان زوناراس قد ذكر عقد هذا الصلح قبيل كلامه هذا كما رويناه عن غيره).
ولما كان معاوية قد توفي وخلفه عبد الملك ارسل رسلاً إلى الملك الذي ولي حديثاً سائلاً اياه تجديد الصلح وان يبعد المردة عن لبنان واذا رضي هذا الشرط يدفع هو إلى الرومانيين في كل يوم الف دينار ومملوكاً وجواداً من الجياد. ولما أبرما هذه العهدة أبعد الملك اثني عشر الف مقاتل من المردة عن لبنان فاطمأن العرب ولم يبق ما يخشونه فانزلوا بالمملكة الرومانية مصائب شتى. وارسل يوستنيانس لانتيوس بجيش فاخضع ايباريا والبانيا وغيرها لسلطته ونقض عهدته مع البلغار ولم يرض ان يفوه الجزية بل غزا الامصار الغربية والب منها جيشاً ثلاثين ألفاً من نخبة الشبان واعزهم وسماهم الشعب المختار فعظم سروره بهم واعتماده عليهم حتى اراد ان ينقض عهده للعرب ايضاً متمحلاً لذلك سبباً بانهم يؤدونه مال العهدة دنانير ليست عليها صورة الملك الروماني واعلن عليهم الحرب معتمداً لا على جيش الرومانيين بل على شعبه المختار الحديث...

وثيقة رقم ٣

«تاريخ الموارنة»

الأب بطرس ضو

بيروت ١٩٧٦

جـ ٣: ص ص ٢١١، ٢١٢، ٢١٣

غدر الدولة البيزنطية بالموارنة

وبحسب التقاليد والنصوص المارونية القديمة نشبت حرب بين الموارنة بقيادة مار يوحنا مارون بطريركهم الأول وبين عسكر أرسله الملك البيزنطي حوالي سنة ٦٩٣ للتنكيل بالموارنة. هذا يتوافق مع المعارك التي نشبت بين الجراجمة الموارنة والعرب بعد عقد المعاهدة المذكورة، تلك المعارك التي يشير إليها البلاذري ويصف تطوراتها. لم يكن تنفيذ بنود المعاهدة القاضية بترحيل المردة من لبنان سهلاً إذ أبدى المردة مقاومة لهذا التدبير ثم ثار الجراجمة من جديد فتعاون الملك البيزنطي والخليفة على القضاء على المقاومة بالمكائد تارة وبالحرب طوراً. هذا أدّى حسب البلاذري إلى مقتل القائد الرومي وتفرقة الجراجمة في لبنان وسوريا. من الطبيعي أن يكون في هذه الظروف حصل بعض التدخل العسكري من قبل الملك البيزنطي لمساندة الخليفة ضد الجراجمة أي الموارنة. هذا معنى الحرب التي تقول التقاليد والنصوص المارونية أنها

نشبت آنذاك بين مار يوحنا مارون وأتباعه من جهة أي الموارنة الجراجمة المردة والعسكر البيزنطي من جهة ثانية.

وهنالك نصوص تاريخية قديمة يتناقلها الموارنة وتتضمن بعض تقاليدهم. من هذه الوثائق تاريخ نسخه داود بن إبراهيم في سنة ١٣١٥ م يتضمن أخباراً مفصلة عن المردة ومعاركهم وأسماء قوادهم. جاء فيه أن حملة المردة الأولى التي جرت بأيام معاوية كان قائدها اسمه يوسف. صار هذا ملكاً على جبيل وجبل لبنان وخاض معارك في أرمينيا وانتصر فيها وكان يقود جيشاً من اثني عشر ألف جندي. ثم هاجم بلاد معاوية وكان الفوز حليفه:

«من بعد هؤلاء دخل على تدبير جبيل وجبل لبنان يوسف الملك، واستصحب معه اثني عشر ألف فارس بطل، وسار بهم إلى بلاد أرمينيا، وظفر بجيش سابور، وكان قائده سرجيس الأرمني، فهدم معاقله وحصونه وسلب نعمته ثم عاد راجعاً. فلما اتصل بسابور أن عسكره ولى مكسوراً امتلأ غيظاً وحنقاً على سرجيس، وأمر به فطُرح في نهر أرسنيس حيث مات غريقاً. ثم ان عساكر يوسف الملك جازت سواحل البحر والبقاع حتى ولجت بلاد معاوية وشتتت أهلها».

هذه هي حملةالمردة الأولى حسب التقاليد والوثائق المارونية الراقية إلى أوائل القرن الرابع عشر.

وخلف يوحنا يوسفَ في قيادة المردة بلبنان. وفي عهد يوحنا هذا توالت هجمات المردة من لبنان، وكانت عاصمتهم بسكنتا، على أراضي الدولة الأموية مما أدّى إلى تجديد المعاهدة بين الأمويين وعلى رأسهم الخليفة عبد الملك وبين الروم وعلى رأسهم يوستنيانس الأخرم. قضت هذه المعاهدة بإبعاد اثني عشر ألفاً من المردة عن لبنان. وحسب التقاليد المارونية التي أوردها الدويهي قاوم يوحنا أمير المردة هذا التدبير فوجه يوستنيانس جيشاً تحت ستار محاربة العرب فاحتال قائد الجيش على يوحنا وقتله. وأقيم سمعان أميراً على المردة فرضخ إلى أمر الملك وانتقل إلى أرمينيا مع اثني عشر ألفاً من المردة. ومن هناك انتقل إلى طراقيا. هذا يتفق مع أقوال مؤرخي الروم أن قسمًا من المردة نقل من لبنان إلى أرمينيا وقسمًا آخر إلى طراقيا. أما قول الدويهي أن سمعان أمير المردة هدم في أرمينيا السد النحاسي فهو صدى لقول مؤرخي الروم وخاصة توافانس وشدرانوس أن المردة كانوا سداً نحاسياً للمملكة البيزنطية فهدمه يوستنيانس بيده لما أبعد المردة عن لبنان. وهذا ما يعنيه الدويهي بقوله أنه بانتقال سمعان والمردة إلى أرمينيا انهدم السد النحاسي أي السد الذي كان يكونه المردة بوجه العرب. ومن ثم لا مجال للتساؤل أو التهكم الذي يبديه بعض الباحثين بخصوص كلام الدويهي عن السد النحاسي الذي هدمه المردة.

وثيقة رقم ٤

«تاريخ الدولة العربية»
يوليوس فلهاوزن
لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة،
١٩٥٨
ص ٢٠٩.

عبد الملك يحترم النصارى

ويذكر اوتيخيوس أنه (عبد الملك بن مروان) أراد أن يضم كنيسة القديس يوحنا في دمشق إلى المسجد الذي كان إلى جانبها، ولكنه عدل عن ذلك احتراماً للنصارى. على أنه تعوزنا المادة للحكم في أمر علاقة عبد الملك برعاياه النصارى، ولكنا نعرف أن نصرانية تغلب لم تَضِرْهم ولم تَضِرْ شاعرهم الأخطل في نظر عبد الملك على كل حال.

وثيقة رقم ٥

«تاريخ الدولة العربية»

يوليوس فلهاوزن

لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة، ١٩٥٨

ص ص ٢٨٩، ٢٩٠

عمر بن عبد العزيز وإكراه النصارى على الإسلام

أما فيما يتعلق بمعاملة عمر بن عبد العزيز لأهل الأديان الأخرى فإن تيوفانيس (في حوادث عام ٦٢١٠ من تاريخ الخليقة) يذكر في ذلك ما يأتي: «ولما حدث في تلك السنة زلزال كبير في الشام حرّم عمر النبيذ في المدن وأكره النصارى على الدخول في الإسلام، وكان من فَعَلَ ذلك رفع عنه الجزية، أما من لم يفعل فإنه قتلهم. وقد استشهد كثيرون، وأمر بألا تقبل شهادة نصراني على عربي، وكذلك وجه إلى القيصر ليو كتاباً بينّ له فيه عقيدة الإسلام أملاً في أن يقنعه بالدخول فيه». وفي الذي يذكره تيوفانيس خلط بين باطل وحق: أما الحق فهو أن عمر بن عبد العزيز كان مسلماً متحمساً وأن النصارى أحسوا بذلك، ولكن عمر لم يُكره النصارى على الدخول في الإسلام مهدِّداً إياهم بالقتل، لأنه لو كان فعل ذلك لكان فيه اعتداءٌ على الحق القائم (الذي

ضمنه الإسلام للنصارى)؛ وهذا ما لم يكن من عمر، لأنه مسلم حق. وهو فيما يتعلق بالنصارى قد التزم حدود الشرع التزاماً تاماً، وإن كان الأمر ربما بدا في أعين النصارى على غير ذلك. وقد حمى عمر للنصارى ملكيتهم لكنائسهم القديمة التي ضمنها لهم الصلح، ولم يكن يمنع إلا بناء كنائس جديدة، وهمّ عمر بن عبد العزيز بأن يرد للنصارى ما أخذه الوليد بن عبد الملك من كنيسة القديس يوحنا بغير حق، لو أنهم في مقابل ذلك تنازلوا عن الكنائس التي كانت خارج باب دمشق، خصوصاً كنيسة القديس توما، لأن النصارى صارت لهم هذه الكنائس في الحقيقة خلافاً لشروط الصلح، بحكم أن ما كان خارج دمشق قد فتح عنوة ولم يعط للنصارى في شروط الصلح. فلما لم يرض النصارى بذلك جعل عمر ما كان قد صار لهم من كنائس عوضاً لهم عما أخذه الوليد من كنيسة القديس يوحنا.

وثيقة رقم ٦

«تاريخ الدولة العربية»

يوليوس فلهاوزن

لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة،

١٩٥٨

ص ١٢٨

معاوية يوقف تقاتل النصارى العرب

وكانت الشام في نظر المسلمين أيضاً أرضاً مقدسة. وفي بيت المقدس نصب معاوية نفسه خليفة، وصلى بعد ذلك على جبل الجلجلة، ثم صلى عند قبر السيدة مريم. ولا يصح بطبيعة الحال أن يغالي الإنسان في تقدير ما لذلك من دلالة. وقد أظهر معاوية مقدار تهكمه واستهزائه إزاء العقيدة المسيحية في أنه لما جاء إليه اليعاقبة والمارونية ليفصل، بينهم في نزاعهم في العقيدة، غرّم اليعقوبيين، بعد أن غُلبوا أمام خصومهم، عشرين ألف دينار، أخذها منهم وأرسلهم. على أن معاوية لم يكن في قلبه تعلق عميق بالإسلام، وكان، من حيث هو سياسي، متسامحاً مع رعاياه المسيحيين وقد نال محبتهم وعرفانهم لفضله، وكانوا يشعرون أنهم تحت حكمه في عافية لا تقل عما كانوا عليه تحت حكم الرومان، وهذا ما يتبيّنه الإنسان من روح الروايات التي ترجع إليهم.

ويتكلم تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٧٠ لتاريخ الخليقة) عن رعاية معاوية للنصارى؛ وقد برهن عليها معاوية بأن بنى لأهل الرها كنيستهم التي هدمها الزلزال. وكان سرجون بن منصور من أكبر مستشاريه نفوذاً، وقد أورثه ابنه يزيد، وكان سرجون نصرانياً.

وثيقة رقم ٧

«تاريخ الموارنة»

الأب بطرس ضو

دار النهار للنشر - بيروت، ١٩٧٧

جـ ٢ : ص ص ٢٤، ٢٥

معاوية يوقف تقاتل النصارى العرب

ويتضح من كلام لميخائيل السوري ان عبارة «رهبان بيت مارون» في ايام هرقل اي بعد الرسالة التي اشرنا اليها بنحو خمس وعشرين سنة كانت تعني لا رهبان دير مارون في سوريا الثانية وحدهم ولكن رهبان اديار في منبج وحمص والبلدان الجنوبية. وهذا كلام ميخائيل السوري: «وعند ذهاب الملك (هرقل) إلى منبج (١٨) اتى لملاقاته البطريرك مار أثناسيوس يرافقه اثنا عشر اسقفاً... ولبثوا عنده يتباحثون اثني عشر يوماً. ولما طلب اليهم صكاً بايمانهم سلّموه ما كتب اعلاه. وبعد ان وقف عليه اثنى على ايمانهم وطلب أن يناولوه القربان ويقبلوا بالكتابة التي دونها والقائلة بطبيعتين في المسيح متحدتين وبارادة وفعل وفقاً لكيرلّس. ولما رأوا انه منسجم مع نسطور ولاون (البابا) لم يقبلوه فاغتاظ هرقل. وكتب إلى كل مملكته بقطع انف واذني من لا يسلّم بالمجمع الخلقيدوني،

وبنهب بيته. ودام هذا الاضطهاد زمناً طويلاً وسلّم رهبان كثيرون بالمجمع. وأظهر رهبان بيت مارون في منبج وحمص وبلدان الجنوب رداءتهم فقبل جمهور كبير منهم بالمجمع واستولوا على أكثر الكنائس والأديار. ولم يأذن هرقل للأورثوذكسيين (اليعاقبة) بالمثول أمامه ولم يقبل شكواهم بخصوص سرقة كنائسهم».

يتضح صريحاً من هذا النص ان رهبان بيت مارون كانوا في ايام هرقل، قبل استقلال كنيستهم بستين سنة او اكثر، منتشرين في منبج وحمص والبلدان الجنوبية اي الواقعة جنوب حمص بما فيها لبنان يجمعهم اسم واحد «رهبان بيت مارون» ويؤلفون اسرة واحدة. فهذا معنى كلمة «بيت».

وفي ايام معاوية وقبل ان تستقل كنيستهم بعشرات السنين اتخذوا، او اطلق عليهم كمجموع اسم «كنيسة» كما يتضح من نص قديم آخر:

جرت بين الموارنة واليعاقبة محاورة في حضور معاوية اي في اواسط القرن السابع. وقد جاء وصف هذه المحاورة في نص قديم نشره العلاّمتان بروكس وشابو. ويقدّر ان النص جزء من تاريخ وضعه عالم ماروني في الجيل الثامن او التاسع. وهذا هو النص:

«في شهر حزيران من سنة ٩٧٠ لليونان وهي السابعة عشرة لقسطنس (٦٥٨ م) قدم الى دمشق اسقفا اليعاقبة ثوادورس وسبوخت وجرت امام معاوية مناقشة بينهما وبين رجال من بيت مارون بصدد العقيدة. واذ أُفحم اليعاقبة امر معاوية بأن يؤدوا عشرين ألف دينار ورسم ان يلازموا السكينة. ومنذئذ دأب اساقفة اليعاقبة في كل سنة على تأدية هذا المال لمعاوية احتفاظاً بحمايته وحتى يأمنوا الاضطهاد من قبل ابناء الكنيسة (بيت مارون). والذي كان يدعوه اليعاقبة بطريركاً كان يفرض على كل اديار الرهبان والراهبات مبلغ المال هذا فيؤدونه كل سنة...».

وثيقة رقم ٨

«تاريخ مختصر الدول»
لـلمـؤرخ المسيحي غريغوريوس أبو الفـرج بن العبري
دار المسيرة، بيروت (بلا تاريخ)
ص ص :١٢٤، ١٢٥ .

المنصور يحمي المطارنة من بعض أخصّائه

وكان المنصور في صدر امره عندما بنى بغداد ادركه ضعف في معدته وسوء استمراء وقلة شهوة. وكلما عالجه الاطباء ازداد مرضه. فقيل له عن جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوريّ انه افضل الاطباء. فتقدم باحضاره. فأنفذه العامل بجنديسابور بعد ما اكرمه. فخرج ووصىّ ولده بختيشوع بالبيمارستان واستصحب معه تلميذه عيسى ابن شهلاثا ولما وصل الى بغداد أمر المنصور باحضاره. فلما وصل الى الحضرة دعا له بالفارسية والعربية. فعجب المنصور من حسن منطقه ومنظره وأمره بالجلوس وسأله عن اشياء فأجابه عنها بسكون. وخبَّره بمرضه. فقال له جيورجيس: أنا ادبّرك بمشيَّة الله وعونه. فأمر له في الوقت بخلعة جليلة وتقدم الى الربيع بانزاله في اجمل موضع من دوره واكرامه كما يكرم أخصّ الاهل. ولم يزل جيورجيس يتلطف له في تدبيره حتى برىء

من مرضه وفرح به فرحاً شديداً. وقال له يوماً: من يخدمك ههنا. قال: تلامذتي. فقال له الخليفة: سمعت انه ليست لك امرأة. فقال: لي زوجة كبيرة ضعيفة لا تقدر على النهوض من موضعها. وانصرف من الحضرة ومضى الى البيعة. فأمر المنصور خادمه سالماً ان يحمل من الجواري الروميّات الحسان ثلاثاً الى جيورجيس مع ثلثة آلاف دينار. ففعل ذلك. فلما انصرف جيورجيس الى منزله عرّفه عيسى بن شهلاثا تلميذه بما جرى وأراه الجواري. فأنكر أمرهن وقال لعيسى: يا تلميذ الشيطان لَم ادخلتَ هؤلاء الى منزلي. اردتَ ان تنجسني. امضِ وردّهنّ على اصحابهنّ. فمضى الى دار الخليفة وردهنّ على الخادم. فلما اتصل الخبر الى المنصور احضره وقال له: لَمِ رددتَ الجواري. قال: لا يجوز لنا معشر النصارى ان نتزوّج بأكثر من امرأة واحدة وما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها. فحسن موقع هذا من الخليفة وزاد موضعه عنده. وهذا ثمرة العفة. ولما كان في سنة اثنتين وخمسين ومائة مرض جيورجيس مرضاً صعباً. ولما اشتد مرضه أمر المنصور بحمله الى دار العامة وخرج ماشياً اليه وتعرّف خبره. فخبّره وقال له: ان رأى امير المؤمنين ان يأذن لي في الانصراف الى بلدي لانظر اهلي وولدي وان متُّ قُبرت مع آبائي. فقال له: يا حكيم اتقِ الله وأسلم وانا اضمن لك الجنة. قال جيورجيس قد رضيت حيث آبائي في الجنة او في النار. فضحك المنصور من

قوله ثم قال: انني منذ رأيتك وجدت راحة من الامراض التي كانت تعتادني. فقال جيورجيس: انا اخلف بين يدَي امير المؤمنين عيسى تلميذي فهو ماهر. فأمر لجيورجيس بعشرة الآف دينار واذن له بالانصراف وانفذ معه خادماً وقال: ان مات في الطريق فاحمله الى منزله ليدفن هنـاك كما احب. فوصل الى بلده حياً. ثم أمر المنصور باحضار عيسى ابن شهلاثا. فلما مثَل بين يديه سأله عن اشياء فوجده ماهـراً فاتخذه طبيباً. ولما استصحبه المنصور بدأ في التشاور والأذية خاصة على المطارنة والاساقفة ومطالبتهم بالرشى. ولما خرج المنصور في بعض اسفاره وصل الى قريب نصيبين. فكتب عيسى الى قوفريان مطران نصيبين يتهدده ويتوعده ان منع عنه ما التمسه منه. وكان عيسى قد التمس ان ينفذ له من آلات البيعة اشياء جليلة ثمينة لها قدر. وكتب في كتابه الى المطران: ألستَ تعلم أن أمر الخليفة في يدي ان اردت أمرضته وان اردت شفيتـه. فلما وقف المطران عـلى الكتـاب احتـال في التوصل الى الربيع وشرح له صورة الحال فـأقرأه الكتـاب واوصله الربيع الى الخليفة ووقفه على حقيقة الامـر. فأمـر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيسى الطبيب وتأديبه ونفيه. ففعل به ذلك ونُفي اقبح نفي.

وثيقة رقم ٩

«L'Histoire de l'Espagne Musulmane»

Evariste Lévi - Provençal

G-P Maisonneuve, Paris-E. J. Brill, Leiden 1950

Tome I, PP. 225-226-227-230

---

(١) المقاطع المثبتة هنا ترجمها مؤلف الكتاب عن الفرنسية من كتاب ليفي - بروفنسال.

ثورة المستعربين في قرطبة قومية لا دينّية(١)

المعارضة المستعربة في قرطبة (٨٥٠ - ٨٥٩ م)

جرى البحث عبثاً في التواريخ العربية، على اختلاف أزمنة تأليفها، عن أي إشارة إلى الأحداث التي أحزنت الجالية المسيحية في قرطبة قبيل وفاة الأمير عبد الرحمن الثاني. ولسنا نعرف هذه الأحداث إلا عبر الروايات التي خلفها شهود العيان، وعلى الأدق بعض من شاركوا فيها. ويعود إلى دوزي الفضل في إماطة اللثام عنها في القرن التاسع عشر؛ لكن هذا العالم أعطى هذه الأحداث، في روايته لحكم الامير الأموي الاندلسي الرابع، مكانة لا تتناسب حجمًا مع بقية روايته.

---

(١) محاضرة ألقاها د. ادمون رباط يوم الأربعاء ٤ آذار ١٩٨١، في قاعة مونتان في بيروت، في بداية سلسلة المحاضرات عن المسيحيين العرب، وقد نظمتها «دار الفن والأدب». ونشرت المحاضرة في العدد ٣١ من مجلة «المصباح»، في ٢٠ آذار ١٩٨١، بيروت.

فالدور الجليل الذي لعبه، كما سنرى، عبد الرحمن الثاني في تطور الحضارة وفي تقدم الحياة الاجتماعية والإدارية للأندلس، يكاد يتلاشى، إذا لم نحتفظ سوى بالاتهامات التي وجهها إيلوخو أو ألفارو إليه.

وقبل تفحص هذه الاتهامات، لا بد من إيضاح موقف الإسلام الأندلسي من كنيسة المستعربين في القرن التاسع [للميلاد]: إن في هذا مسألة سبق أن بحثها بحمية متوقدة، وأحياناً حادّة، بعض البحاثة الإسبان الموصوفين بأنهم عصريون، وبخاصة سيمونيه، في كتابه الموسوم بتاريخ المستعربين الإسبان، وهو كتاب جدير - فيما عدا ذلك - بأعلى درجات الاحترام والتقدير. وسنكتفي بإعادة سرد أهم ما جاء في صفحة، حاول فيها مؤلف هذا الكتاب منذ سنوات، أن يضع المسألة ضمن إطار موضوعي، إذ كتب عام ١٩٣٢: «إذا كانت عهود بعض الأمراء الأمويين [في الأندلس] قد اتسمت باضطهاد الجاليات المسيحية، وبخاصة جالية قرطبة، فلا بد من الاعتراف بأن هذه الاضطهادات لم يكن يمليها تعصب الامراء، بقدر ما كانت تمليها اعتبارات سياسية. فهذه الجاليات كانت في الواقع البؤرة الأشد اتّقاداً للحركات القومية التي نشأت بلا ضجيج بين نهاية عهد عبد الرحمن الأول [الداخل] وعهد [عبد الرحمن] الناصر. ولم يكن الأمويون

حينئذ يبطشـون بمشركين بمقدار ما كانوا يبطشون في الواقع بمتمردين. بفعل الظروف تحول كل مسيحي الى مشبوه، وفي معظم الحالات كانت الشبهة في محلها. ونتج من ذلك إسلام الكثيرين. لكن هؤلاء المسلمين الجدد أشهروا إسلامهم دونما إكراه، لمجرد تجنب الشبهة التي حامت عليهم بجريرة أبناء ملتهم المشاغبين. غير انه كان ينبغي عليهم، حالما يسلمون، ألا يرتدّوا عن إسلامهم. فكان المرء يستطيع ان يظل مواطناً مسيحياً في دولة الإسلام الإسباني، لكنه لم يكن يستطيع بعد إسلامه أن يرتد عن الايمان الاسلامي، دون تعريض نفسه للعقـوبة العـظمى. ولم يكن شتم دين المنتصرين مبـاحـاً. وشهداء قرطبة في القرنين التاسع والعاشر، لم يكونوا متمردين على محاولات إكراه ديني، بل كانوا مرتدين أو صوفيين، ولم يكن القضاة المسلمون يدفعونهم الى جـلادهـم، إلا بعد ان ينتابهم شعور الاشمئزاز، لأنهم كانوا يرفضون التراجع عن الشتائم المهينة التي كالوها الى الدين الرسمي للبلاد.

وفي جميع الحالات تقريباً، استنكر زعماء الجاليات المسيحية في اسبانيا أشد الاستنكار هذه المظاهر التي كانت تصدر عن متحمسين» . . .

. . .وفي طول تاريخ الاسلام في القـرون الوسـطى، لم يصدر قط حكم بِدَيْن متهـم من دافعي الجزية دون مشاورة

دار الفتوى مسبقا، والفتوى التي كان يصدرها المستشارون الشرعيون، بناء على استشارة من قاضي قرطبة الكبير أو الأمير نفسه، هذه الفتوى لم يكن الأمير يستطيع انتهاكها دون أن يستهدف للنقمة الاجماعية. وطالما ان دين النبي قد أهين، فان العدالة كانت تتخذ مجراها، أكان المتهم مسلمًا أم غير مسلم. وفي هذا الشأن، ليس من نافلة القول ان نشير الى انه في الوقت نفسه الذي كانت فيه موجة الشهداء المتطوعين للموت في قرطبة في أوجها عام ٨٤١ م (٢٣٧ هـ)، حكم بالموت على مسلم قرطبي، هو ابن شقيق [أو شقيقة] عجب، إحدى الجواري الأثيرات لدى الأمير الحَكَم الأول، بعد استشارة شرعية أصولية، على الرغم من مداخلة عمته [أو خالته] الملحة لدى الأمير، لأنه أظهر الزندقة والاستخفاف بالدين الاسلامي. وفوق هذا، فان الوثيقة العربية الإسبانية الوحيدة التي وصلت الينا في موضوع الشهادة الطوعية، تشير تحديداً إلى أن الحكم بالموت لم يصدر إلا بسبب إنكار ألوهه الله ورسالة محمد.

الفهرس